روايـة

جوانمرد كولك

٢٠:٣٩

ترجمة:
عبدالله شيخو

Telegram:@mbooks90

Author: Ciwanmerd Kulek

20:39

© Copyright

Translated from Kurdish by:
Abdullah Sheikho

Book Design:
Sarwar Murad

ترجمها عن الكردية:
عبدالله شيخو

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

الطبعة الأولى | سبتمبر 2023
ISBN: 978-9921-712-69-8
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:
1440-2023

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر
© Alkhan Publishing & Distribution

+965 99462291 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw
info@daralkhan.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

*** جوانمَرد كولَك**

روائي وقاص ومترجم كردي. وُلِدَ عام ١٩٨٤ في إحدى قرى بلدة "ستَور/Stewr" التابعة لولاية ماردين في كردستان تركيا. التحقَ في عام ٢٠٠٠ بجامعة الشرق الأوسط التقنية في أنقرة وأنهى دراسة اللغة الإنكليزية إلى جانب دراسة تاريخ الفلسفة. تعلَّمَ الكتابة بالكردية عام ٢٠٠٤ وألّف منذ ذلك الحين العديد من النتاجات الأدبية.

شاركَ في العديد من اللقاءات والمعارض الدولية وقدَّم محاضرات عن الرواية الكردية والترجمة، وشاركَ في ورشات عديدة عن الكتابة الأدبية. في نيسان/إبريل ٢٠١٦ اختارته لجنة "أصوات جديدة من أوروبا/New Voices from Europe" بوصفه واحدًا من عشرة أصوات أدبية أوروبية جديدة. يقيم منذ عام ٢٠١٤ في إسطنبول. له خمس روايات ومجموعتان قصصيتان وديوان شعري وحيد، كما ترجم سبعة نتاجات أدبية مهمّة عن الإنكليزية والإسبانية والتركية إلى الكردية.

** عبدالله شيخو

مترجم كرديّ، وُلِدَ عام ١٩٨٨ بمدينة قامشلي بسوريا. درس الحقوق في جامعة دمشق. له كتاب نثريّ بعنوان "بوغي بريفا"، وترجم ثمانية أعمال أدبيّة وفكريّة وتاريخية عن العربيّة إلى الكرديّة أهمها "السيرتان" و"موتى مبتدئون" و"كهوف هايدراهوداهوس" لسليم بركات، و"اليهودي الحالي" لعلي المقري، كما ترجمَ أعمالًا عن الكردية إلى العربية، منها رواية "آخر رمّانات العالم" لبخيتار علي، والتي ترجمها بالاشتراك مع إبراهيم خليل. يعيش حاليًا في مدينة قامشلي ويدير منشورات نقش التي تنشرُ باللغتين الكردية والعربية.

إهداء المُترجِم

إلى جميلتي ميديا؛ إلى ابتسامتها

"الوقت مقياس التغيّر بين لحظتين".

أرسطو

1

"ما تزال الساعة تشير إلى الثامنة وتسع وثلاثين دقيقة مساءً"، قالها الفتى واضعًا هاتفه المحمول على الطاولة. لم يكن معصمهُ قد تحسّسَ ساعة يدٍ من قبل؛ ما استعملها قط. "يبدو أن الليالي تطولُ وتغلبُ الأصباح".

"آه آه!" قالت الفتاة، "معكَ أيضًا الوقت لا يمضي أبدًا". حملت كأس العرق الطويلة بخوفٍ وارتشفت منها رشفةً صغيرة، ومن ثم أبعدتها عن نفسها قليلًا. نظرتْ إلى الكأس وامتقع وجهها كمن التهم ليمونةً كاملة. كيف لها أن تحبّ هذا السمّ الزعاف؟ استدارت إليه، وهزّت كتفيها وتبسّمت بمزاج اختلط فيه السخط بدعابةٍ مرحة. كان الوقت يمضي سريعًا؛ هذا ما أرادت قوله. كانت عربة الزمن تسابق الريح.

Telegram:@mbooks90

"ربّما تم تأخير الساعة، قد يكون هذا هو السبب"، قال الفتى بشكلٍ يوازي معنى أو احتمال الدعابة فيما قالته الفتاة. اليوم، حين استيقظَ في الوقت المعتاد، لاحظَ أنَّ الصبح قد حلَّ قبل أوانه مقارنةً باليوم الذي سبقه.

"لا، لا، العلّةُ تكمن في ساعتك"، يبدو أن لعبة الزمن هذه أعجبت الفتاة. "هذا حال ساعتك، دائمًا ما تقدّم الوقت بضع دقائق، لكن للأسف، أنت نفسك متأخّر بضعة عقود".

دُهشت من الطاقة التي طغت على علاقتهما في تلك اللحظة. كالأحجار أسفل نهر جارٍ، دون أن تميّزها العين من الخارج، كانت بعض الأحاسيس تتغير داخلها أو تصير شيئًا آخر. "متى ما شعرتِ أنكِ بدأت

تشبهينه، تيقّني أنَّ الحب قد بدأ واستقرَّ داخلكِ، فلا تتركيه"، تذكَّرتْ هذه المقولة التي بادرت بها أليف كي تطمئنها. في الأربعاء الماضي، كان الفتى قد زار منزلها حاملًا معه زجاجة من نبيذ عنب "كابرنيه سوفينيون". كان صوت موسيقى الجاز يعلو من داخل المنزل الذي تنتشر الشموع في كل أرجائه. تراقصا على إيقاع ألحانٍ ملكية، تداخل جسداهما بشكلٍ لا يُوصف. شعرت، وهي تحتضنه، بدفءٍ لم تألفه لدى رجلٍ آخر، وآمنت أن ما يقيّد روحها بالفتى هو تلك اللذة وذلك الدفء العصيّان على التعريف؛ شيء يتجاوز تداخل الدم واللحم والعظم والأنفاس. لقد كانت إحدى تلك اللحظات المُبهجة التي شعرت فيها أن التوافق الحيواني فيهما يطغى على الإنساني، ويخلق فيهما تفاهمًا وتلاؤمًا أكثر حتى ألِف بعضهما بعضًا. كانت تعتقد اعتقادًا راسخًا أن التآلف يعني أن تلامس قدما الحب الأرضَ حيث العالم الواقعي وحيث تتحول قصة حبّ إلى حياة. ما كانت لتتخلى عنه بعد أن اقتربت منه كل هذا القرب. ما زالت تتذكّر، وكأن روحها وجسدها قد انصهرا في وعاءٍ واحد. مسافة قصيرة تفصلهما عن الباب الذي سينفذان منه إلى التآلف في الجانب الإنساني. كانت هذه القناعة قد ترسّخت فيها بعد احتضانٍ طويل ساد فيه الصمتُ وسُكر الروح، وبعد أن سحبت يديها ببطء من خلف رأسه وعاودت تنشق رائحة شعره وعنقه، رفعت رأسها وتأمّلت عينيه اللتين كانت ترغب بتقبيلهما. مهما حصل، كانت هاتان العينان ستنظران إليها بالطريقة ذاتها، وأينما استقرّت بها الأيام، كانت ستستشفُّ ذاك المعنى وتلك القناعة من نظراته. آمنت بنظراته أكثر من أي شيءٍ آخر. ليتها استطاعت التمعّن أكثر بعينيه في تلك الليلة التي انصهرا فيها وانطفأا معًا كشمعتين.

"ما بكِ؟ لمَ تحدقين فيّ بهذا الشكل؟" سألها الشاب. كان يلبس قميصًا أبيض تحت الصدرية السوداء التي ابتاعتها له. كان شعره المثبّت والمسرّح نحو الخلف يُظهر تفاصيل جبهته العريضة للعيان، فيما يترك الخطُ الظاهر وسط جبهته ظلًا مزيّفًا حين يستغربُ من أمرٍ ما. كان قد مضى وقتٌ طويل على تعارفهما.

"لا أدري"، قالت الفتاة.

أدركت مباشرةً أنّ ما أحسّت به كان شعورها بأنها حديثه العهد به. كلما تخاصما وانفصلا بعضهما عن بعض خلال العلاقة التي جمعتهما منذ عامين ونيف، شعرتْ بالأثر الذي تركه في داخلها. كان هذا الأثر يكبر شيئًا فشيئًا. في آخر مرة، حينما انفصلا وشعرت أنها لن تراه أبدًا، أدركت في اليوم التالي أنها اندثرت ولم يتبقَ منها شيء. لم تتمكن من البدء بأي شيء. كان جوفها قفرًا كصحراء، وتحوّلت إلى شخصٍ بلا جدوى. كانت تخشى أن تعدل هذه المرة أيضًا عن قرارها وتعود إليه، فتدخل علاقتهما مرحلة الوهن والضعف التام، لكن لم يتحقق ما كانت تخشاه. شعرتْ أنّ كل ما حال دون توحدهما قد اختفى. حدث ذلك مرارًا وتكرارًا. لكن هذه المرة... لم يتبقَّ شيء. كانا معًا، داخل علاقة نقيّة ومطلقة، متشكّلة من آلاف الخيوط المترابطة في أشكال متداخلة. كانت تشعر بذلك. تخطّت تلك المرحلة. كان ذلك الحاجز، أو المسافة، أو الخط الفاصل بينهما، أو أيًا كان اسمه، قد زال واختفى. لقد بلغته، وقطعت علاقتهما أشواطًا طويلةً وتجاوزت مرحلة التعارف العابر. كانت سعيدة لأنها لم تكن على خطأ، وأنّ أليف، في نهاية المطاف، كانت على صواب ولم يذهب ما قالته هباءً منثورًا: "دعي هذا الزلزال يخلق توازنًا بين سقفك وأرضيتك اللذين نال

منهما الاهتراء، دعيه يضع المسامير مكانها ثانية ويثبتها جيدًا". الآن، نعم الآن، غدت ريشة تحلّق في سماء زرقاء رحبة لا حدود لها.

2

"كالليلة الفائتة، غلبني النوم في التوقيت ذاته"، قال الفتى. "يبدو أنّني لن أتمكّن من متابعة هذا الفيلم".

منذ ثلاثة أيام وهو يخلد إلى الفراش ويفتح حاسوبه المحمول، يبدأ تشغيل فيلم "أوربا" للمخرج السينمائي "لارس فون تراييـر"، يتابعه حتى الدقيقة الرابعة والأربعين، ومن ثم يغلبه النعاس شيئًا فشيئًا ويرمي به في شَرَك النوم حتى يستسلم فلا يقوى على فتح عينيه. ذات مرة، حين زار الفتاة في منزلها وتابعا معًا فيلمًا، أثقل النعاس عينيه فأطبق جفونه وأخذه النوم، ما أزعج الفتاة كثيرًا ودفعها إلى إيقاف الفيلم. مضت تلك الليلة دون أن يتعانقا وهما مستلقيان، ودون أن تتلاقى أيديهما عند صدرها. وكجميع قرارتها الصارمة والقطعية، كانت الفتاة قد قررت ألا تتابع معه فيلمًا بعد اليوم؛ هو أمر منتهٍ بالنسبة لها! لذلك، حاولت دومًا أن تشاهد الأفلام بمفردها وهي في المنزل. ألم تكن علاقتهما ستتحول إلى فيلم، ولذا كان عليها أن تكتب نصًا جيدًا وتمضي به حتى يكتمل دون أن تعلمه بشيء.

كان من المعتاد أن يصارعه النوم وينهكه وهو يتابع فيلمًا من حاسوبه المحمول الذي كان يضعه تحت إحدى أطراف لحافه. كانت عيناه لا تقويان على المقاومة ومتابعة المشاهدة، فيما كان جسده المنهَك ينسكب داخل حساء النوم كعجينٍ مائع؛ يقاوم للنهوض من على السرير، فيضع الحاسوب على الطاولة ويعود إلى السرير متكاسلًا. لكن ما إن يستلقي ويسحب اللحاف حتى ينقطع حبل النوم فلا يتصل بعد ذلك.

كان النوم يهجره كروح غادرت جسدها؛ يفارقه ويتركه مرهقًا في أرقٍ شديد، فلا يقوى على النهوض ليجلب الحاسوب ويتابع مشاهدة الفيلم ثانيةً، ولا تطاوعه عيناه في الاستغراق في النوم. أحيانًا، كان الليل يضيق به حتى يكاد يبكي أسىً، فكان يتقلّب ذات اليمين وذات الشمال حتى يوارب النوم فيغلبه. حدث معه ذلك للمرة الأولى أثناء مشاهدته لفيلم "In The Mood For Love(1)" للمخرج "وونغ كار واي". في اليوم التالي، لم يقوَ على الاستيقاظ من النوم بنشاطه المعتاد. أمضى خمس عشرة دقيقة في فراشه ليتمكن بعدها من مغادرته، ولم يصحُ ويتنبه بشكلٍ جيد إلا بعد أن استقلَّ القارب ليعبر مضيق البوسفور إلى الجانب الآخر من المدينة. بالطبع تأخّر عن عمله الذي اعتاد ضجره نوعًا ما بفعل الروتين اليومي. كانت عبّارة "جُزر الأمراء" قد فاتته؛ كانت المرة الأولى التي يتأخر فيها عنها. بعد مرور ثلاث ساعات، صعد إلى متن العبّارة التي عادت بعد الانتهاء من رحلتها الأولى. وكالعادة، دخل غرفة الربّان متأبطًا الجرائد الثلاث التي كان قد ابتاعها، فقابله الربّان بسحنته الجامدة الخشنة. ألقى الربّان نظرةً خاطفة باردة على خطوط الكتابة المتناثرة على أطراف الصحف التي كان يتأبّطها، دون أن يكلّما بعضهما بعضًا. أمضيا يومهما حتى المساء وهما يصغيان إلى المذياع بصمت دون أن ينبسا ببنت شفةٍ. منذ ذلك اليوم، عوضًا عن تأخير توقيت منبهه، قام بتقديم توقيت ساعته خمس عشرة دقيقة.

"الأمر لن يقتصر على مشاهدة الأفلام! يبدو أن الكثير من الأشياء ستفوتك دون أن تتمكن من إتمامها"، عاودت الفتاة التعليق بتهكّم، ودفعت صحن المقبلات الصغير الذي كان يحتوي أدمغة مسلوقة

نحوه. "تناول القليل من هذا، قد تصبح فطِنًا مثلي". أشرقت الابتسامة الطفولية على ثغرها الصغير كحليب ساخن فارَ من شدة غليانه، وارتجفت شفتاها المحمرّتان من أثر أحمر الشفاه. أدارت وجهها، التقطت الشوكة والسكين وقطّعت شيئًا من آخر قطعة من الحبّار أسفل الصحن وتناولته ببطء.

بدت له اليوم جميلةً أكثر من أي يوم مضى؛ مرهفةً ورقيقةً أكثر. كان خدّاها قد توردا وامتلأا. كانت قد جمعت شعرها الكستنائي الفاتح في عقدة نحو الخلف وسرّحت ناصيتها المسبلة بشكل جانبي، مرتدية تنورة كلوش بيضاء متدلية حتى ركبتيها وبلوزة زهرية رسمت شكل صدرها وخصرها، فيما كانت سترتها السوداء المقلّمة بخطوط بيضاء، والموضوعة على الكرسي بجانبها، تتناسب مع لون حذائها.

"آه لو كان هناك شخص..."، كأنه قالها، دون وعي وإدراك، وهو يملأ دفتر خيالاته بمحاسنها. ارتعش من رأسه حتى أخمص قدميه جراء الشعاع الذي أشرق فجأة في ذهنه، كنافذةٍ دفعتها ريح عاصفة ملأت الداخل بهواء متجمّد. "... ليحمل الحاسوب المحمول عن السرير بدلًا عن المرء".

سواء كان نائمًا أو مستيقظًا في تلك الليالي التي كانت تحمل إليه فيلم "أورها"، كان يخُيّل إليه بشكل لا ريب فيه أنها تزوره في الدقيقة الرابعة والأربعين من عمر الفيلم، في تلك اللحظة التي يمتزج فيها النوم باليقظة، تحمل الحاسوب المحمول، تضعه على الطاولة وتستلقي بجانبه وهو غارق في نومه العميق، تضع ساعده على كتفها وتمسك بيده لتضعها على صدرها الدافئ.

"اعثر لنفسك على فتاة"، قالتها الفتاة وهي تدفع خُصلات من شعرها المنسدل جانبًا فوق أذنها. حملت كأس العرق وارتشفت منها -كما لو كانت خائفةً- رشفة صغيرة بطرف شفاهها.

تأمّل عينيها لبرهة، كانت عيناها الصفراوان -كعيني قطة- تلمعان في خداع وعناد لذيذين. كان يتوق لتجاوز الطاولة وتقبيلها. كان الإلهام والشغف اللذان استمدّهما من هذا الدفء قد منحاه الجرأة والقوة. قبل أسبوع، حين أنهى كتابة السيناريو وأراد لقاءها فورًا، ابتاع زجاجة من النبيذ الأحمر وسارع صوب منزلها كمن يجري نحو مسرح خيالاته التي صارت حقيقة. في الطريق، "ها قد كتبتهُ، بإمكانكِ أن تسمّيه كيفما شئتِ"، قد يكون هذا ما قاله في نفسه. شعر بقربه منها أكثر من أي يومٍ مضى؛ أحسّ بأن خيالاته تتحقّق وهو قريب منها. وفي وصالها، بعد آخر هجران، شعر بحلاوتها أكثر من أيّ وقتٍ مضى. كان يشعر بطوفان عظيم يطفو به دون أن يتمكن شيءٌ من صدّه. حتى لحظة وصوله إلى منزلها وتسامره معها حتى الفجر، كان يشعر أنهما يعيشان ويتحركان في حدود ذلك السيناريو الذي كانا يلعبان فيه دورين رئيسيين.

نعم، كانت تحبّه، وكان يعي ذلك تمامًا. كانت تكشف غيرتها في أصغر دعابة، واليوم، كانت المرة الأولى التي ترافقه إلى الخمّارة ليشربا العرق. سابقًا، كانا يذهبان دومًا إلى إحدى البارات أو المطاعم وكانا يشربان النبيذ الأحمر فحسب، كانت هي من تقترح تلك الأماكن وهو من يرافقها. وقتها، كانت تتحدّث دومًا عن الأطعمة المتنوعة التي تناولتها في أماكن مختلفة من العالم. في النهاية، أقنعها بالذهاب لشرب العرق والاستمتاع بالجلسة وسمرها. سبق له أن زار هذا المكان برفقة نواف. كان يعشق

أحاديث طاولة العرق وصحبتها. كانت المقاطع الموسيقية التي يتردد صداها في الخمّارة منتقاة من أرشيف الموسيقى الكلاسيكية التركية، وتشبه تلك الأغاني المسجلة على الأسطوانات الموسيقية التي كان يتم تشغيلها على الغرامافون في النادي الذي كانت تصطحبه إليه. كانت فكرة كتابة السيناريو وبعض مقاطعها ومشاهدها قد خطرت له هنا، فيما لاحت له بعض محاوراتها في غرفة ربّان العبّارة، لذلك أراد أن ترافقه يومًا ما إلى هذا المكان وأن تجرّب هذه البهجة. كان سيعشقها. ألم يكن العرق أيضًا -كالنبيذ- يُصنع من العنب؟ ألم تكن تحبّ المأكولات الباردة المدهونة بالزيت؟ ألم يكن ذوقها يشبه تلك الأغاني التي يستمعون إليها الآن؟ هناك، كان سيسرد لها القصة الكاملة للفيلم، وكانا سيفكران معًا لاختيار اسم جميل للفيلم. في المحصلة، قبلت الفتاة الدعوة وجاءت معه. ما إن عبرا باب الخمّارة حتى تناهت أغنية " Sevemedim kara Gözlüm(2)" التي كانت تحبها كثيرًا إلى مسامعهما: "آه، أغنيتي المفضّلة"، قالت ما قالته ونظرت بلطفٍ إلى النادل الكهل الذي رحّب بهما أمام باب الخمّارة. كان ابتهاجها ورضاها قد أسعدا الشاب، حتى إنها لم تمتعض حين أخبروها أن الطاولة الوحيدة التي تطلّ على النافذة "محجوزة". الآن، يجلس زوجان، رجل وامرأة عجوزان، على تلك الطاولة ويتكلمان بصوتٍ خافت وهادئ، فيما تنظر هي إليهما لهنيهة وتشبّههما بشخصين آخرين.

"دعني ألتقط صورةً لنا"، قالت الفتاة فجأة والتفتت باحثةً عن هاتفها حتى عثرت عليه فوق علبة المناديل الورقية، وطلبت منه الجلوس بجانبها لالتقاط الصورة.

"لا أبدو جميلًا في صور السيلفي"، لم ينهِ الشاب جملته حتى اقتربت منه ومالت ذات اليمين وذات الشمال والتقطت صورتين أو ثلاث. نظرت إلى الصورة لبرهةٍ دون أن تنبس ببنت شفةٍ أو تريه الصور. تمتمت عيناها بعبارات مُبهمة. فتحت الكاميرا ثانيةً، اقتربت منه، أبعدت الهاتف وطلبت من الشاب أن يضغط على زر الالتقاط. التقطت بضع صورٍ أخرى وعاد الشاب ثانية للجلوس على كرسيه. وفيما كانت الفتاة تتفحص الصور المُلتقطة، كان الشاب يملأ كأسه الثالثة من زجاجة العرق ٥٠ سنتيلتر ويتأمّلها بصمت.

"لا بأس بهذه"، غمغمت بصوت خفيض، وكأنها تحدّث نفسها. "دعني أشاركها أولًا على الإنستغرام، ومن ثم على الفيس بوك". صمّت أذنيها عن طلبات الشاب في رؤية الصور، وألهت نفسها بالهاتف هنيهةً. "جيد، تمّت المشاركة. الآن جاء دور الفيس بوك، أأشاركها على الفيس بوك أيضًا؟"

"ماذا؟" قالها الشاب كمن شرد وسمع شيئًا فجأة؛ هزّ رأسه محتارًا.

"ها قد انتهيت، فلننتظر لنرى"، قالت الفتاة ووضعت الهاتف جانبًا.

"هل كتبتِ شيئًا؟"

دُهشت الفتاة قليلًا ومن ثم قالت:

"لا!".

بعدها، قالت كمن تذكّر شيئًا فجأة: "ما عساي أقول أكثر من ذلك؟" وأدارت وجهها.

3

كانت صور إسطنبول العتيقة معلّقة على الحائط الجانبي. حدّقت بثبات في إحداها؛ كان مضيق البوسفور فيها متجمدًا تمامًا ويكسوه الثلج، فيما كانت ظلال بضعة أشخاص تظهر فوقه. أخذت نفسًا عميقًا من أنفها وارتفع ثدياها المكوّران قليلًا تحت البلوزة الزهرية ثم انخفضا. التفت إلى الجانب الآخر. كان الرجلُ العجوز ذو الشعر الأبيض، الجالس على مقعد الطاولة "المحجوزة" المطلّة على النافذة قد أحنى رأسه قليلًا صوب الطاولة، ويحدّق بعينيه البيضاوين والمتعبتين في العجوز الجالسة قبالته. كان يحدّثها ويحرّك يديه ويمررهما بعضهما فوق بعض في حركة واحدة كما لو كان يكرر الشيء ذاته مرارًا. على حين غرّة، وعلى وميض الصاعقة التي عصفت بذهنها، شبّهته بشخصٍ ما وتنهّد قلبها. أشاحت بوجهها ثانيةً وأحنت رأسها.

حين كانت تلتقط حبّات العنب من الصحن وترمي بها في فهمها، في الوقت الذي كان يحدّثها الشاب بحماسٍ عن تفاصيل السيناريو الذي كتبه، كانت بالكاد تستمع إليه وهي تحدّث نفسها، لذلك كانت أحيانًا - دون أن تدَع الشاب يشعر بها- تحتال وتقتنص كلمةً أو تفصيلًا من حديثه وتحاول استدراجه واستنطاقه لإعادة الفكرة التي كان يجاهد لإيصالها. مَن كان يدري، ربّما كان ذلك يمثّل الإشراقة الأولى لإحساس وعاطفة أقوى وأكثر سحرًا كانت ستدركهما بعد عدّة أعوام. حين سألها الشاب مرةً أخرى: "بمَ تفكرين؟"، قالت دون أن تكفّ عيناها عن النظر إلى البريق اللا مرئي المتراقص الذي كان يتلألأ في بؤبؤي عينيه

السوداوين الكبيرين: "Ne Olursun Güzelim Sevsen Beni(3)
مُزيّن سَنار(4) ما زالت على قيد الحياة".

تبسّم الشاب.

"أعتقد ذلك"، قال. وما إن تنبّه إلى الأغنية التي كان يتردّد صداها في الخمّارة حتى أتمّ جملته بالقول: "هذا صحيح فعلًا... يبدو أن الأغنية التي تم تشغيلها تتكرر منذ ساعة".

"يبدو أن السيدة لم تصدح طوال عمرها بهذه الأغنية مثلما غنتها اليوم هنا"، قالت بتهكّم.

"قد يصادف اليوم عيد ميلادها أو ذكرى مناسبة ما متعلّقة بها أو شيء من هذا القبيل، لذا تراهم يعيدون تشغيل الأغنية بشكلٍ مستمر"، قال الشاب.

"لا أدري، لا عِلم لي بأيّ مناسبة".

لهنيهة، استمع إليها الشاب باهتمام، ثم ددنَ الأغنية وهو ينظر من حوله بصمت. ثم نهض فجأةً والتفت إلى الفتاة قائلًا: "يبدو أن الجميع يكرر الأشياء ذاتها منذ فترة طويلة، نحن الوحيدان هنا نفعل أشياء مختلفة".

لم تحرّك ساكنًا، بدت محافظة على رباطة جأشها وثباتها. أجابت بهدوء وبشكلٍ طبيعي: "ولهذا السبب أحبّك!"

جفلا وبُغِتا حتى الأعماق كما لو أنهما انتبها إلى الصاعقة بعد أن ضربت بينهما. وعلى حين غرة، دون سابقِ إنذار أو تحذير، ساورهما

الشك بالنفس وبكل شيء؛ وكأنهما عاشا لحظة خرافية. كانت المرة الأولى التي تنطق فيها بجملة كهذه. هل كانت المرة الأولى بالفعل؟ كأن جميع المرات السابقة التي لم تكن تتذكرها قد طُمست وأضمرت؛ كانت كل المرات السابقة التي لم تحدث قد أُبطلت وغدت لاغية أمام هذه المرة. كأنها، منذ اليوم الأول من يوليو، منذ عامين وأربعة أشهر وبضعة أيام لم تعد تتذكر تعدداها، كانت المرة الأولى التي تقول فيها الفتاة أنها تحبّه. أكانت تحبّه حقًا؟

"دعني أرى من أُعجب بصورتنا"، قالت على عجل محاولةً تجميع أفكارها. حملت هاتفها المحمول في محاولةٍ للتستر على "الخطأ" الذي ارتكبته دون قصد وإخفاء خجلها وحرجها من ذلك "الخطأ". في الجانب الآخر، كان الشاب يشغل نفسه ويستمتع بالرموز والعلامات الموسيقية التي كانت تتفكك شيئًا فشيئًا وتتأرجح قطعًا وفتاتًا في الهواء. كانت لحظة فريدة لا نظير لها. كان كل ذلك قد حدث في وقتٍ كان فيه غاضبًا منها لعدم التفاتها إلى موضوع السيناريو الذي كان ذا أهمية كبرى بالنسبة إليه دون أن توليه أيّ اهتمام يُذكر. نعم، كانت المرة الأولى -لم يكن يعتقد أنه سيبتهج جدًا بشيء يحدث للمرة الأولى. لقد قالت إنها تحبّه دون أن يسألها هو إن كانت تحبّه أم لا، ودون أن ترفع رأسها عمدًا وتطبق شفتيها لتقول "لا!". لقد كان الحب ينبع من صميم قلبها، إذ كان يستحيل أن تسرّ بشيء إن لم يغمر قلبها ويطفو به. كان استياؤه من حيرتها وعدم اهتدائها إلى هذا الطريق دون جدوى. عزوفها السابق عن هذه التعابير العاطفية أزعجه في كثير من الأحيان وسبب له الضيق والتبرم. أما الآن، فهو يشعر بسعادة غامرة وبأنه يعيش أجمل لحظات

حياته.

"الحمد لله، ها هي ساعتي تشير إلى الثامنة وتسع وثلاثين دقيقة. هذا يعني أن الوقت يمضي على الأقل!" قالتها الفتاة بنبرة منخفضة، ومن ثم تجهّمت وعقدت حاجبيها. أغلقت الهاتف بغضب وأعادته إلى مكانه السابق فوق الطاولة، وقالت:

"لم يضع أحد بعد إعجابًا على صورتنا!" نهضت من مكانها، وأضافت: "سأذهب إلى الحمّام".

كان الشاب يغفو في مسرّته وابتهاجه، كمن يضع اللبنة الأخيرة في البناء الذي شيّده. كان شعورًا مليئًا بالهدوء والرضا على ما تم إنجازه وإتمامه؛ على حجر الزاوية الذي أكمل البناء العظيم بأسره. ودون أن ينتبه إلى كلمات الفتاة ومغادرتها إلى الحمّام، كان يدندن كلمات الأغنية التي كانت تتكرر دون انقطاع: Ne olursun güzelim sevsen beni...

4

كان ما يزال منغمسًا في تلك الحالة حين عادت الفتاة إلى مقعدها، كأنه أتمّ كل شيء واختار اسمًا للفيلم أيضًا. كان خجل البهجة التي تغمره قد قيّد يديه وقدميه. حمل الملقط والتقط مكعبين من الثلج، وضع مكعبًا في كأس الفتاة والآخر في كأسه.

"لقد سال مسحوق التجميل على وجهي"، قالت الفتاة وهي تمسح أسفل عينها بإصبعها. "هذا المسحوق أيضًا سيء، انظر إلي، لقد غيّر لون بشرتي. يجب أن أبتاع غيره". ضُعق في تلك اللحظة. شعر أنه يعيش في زمانٍ ومكانٍ آخرين، في عالمٍ انتقل فيه قبل لحظات فقط إلى ذكرياتٍ قديمة. وقعت عيناه على الشعرات البيض في خُصلات الفتاة. أحسّ بتغيير من ذاك البياض الذي انتشر بسرعة على وجهها وملامحها وهيئتها. كان عاجزًا عن تمييز ووصف هذا التغيير. لكن كيف سيخبرها بذلك؟

مالت الفتاة نحو الطاولة، فتّشت عن شيء داخل حقيبتها اليدوية، أخرجت زجاجة العطر الخاصة بها وأحنت رأسها جانبًا. وضعت قليلًا منه على الطرف الأيمن من عنقها، أسفل أذنها، ووضعت القليل على الطرف الأيسر. هل كان ذاك الظلّ الخفيف على طرف فمها موجودًا من قبل؟ قد يكون العرق قد أسكرها وأضعف بصرها. نظر إلى الزجاجة؛ كان العرق قد شارف على الانتهاء، فيما كانت صحون المقبلات -عدا الصحن الذي كان يحتوي على شرائح البطيخ- قد أُفرغت تمامًا. كان ثَمِلًا. قد تكون ضربة من الحب ورشفة من العشق وجرعة من الهيام كفيلةً بأن

يرى المرء الحقيقة. لكن ما الذي كان يراه؟ يبدو أن العشق ما كان يعمي العيون، بل يكحّلها. العيون؟ استجمع قواه ونهض ليتوجه نحو الحمّام. قضى حاجته في الحوض القريب من حائط المغسلة الصغيرة، واتجه نحو المغسلة ليغسل وجهه ويزيل غشاوة الثمل عن عينيه. أخذه العجب من نفسه أيضًا. كان الغرام قد دهمه. نعم، نظر إلى نفسه كمن يحدّق في شخصٍ غريب. أكان غريبًا عن نفسه؟ كان مغتبطًا.

ما إن عاد وجلس على كرسيه، حتى التفت إليها ونظر إلى شعرها. كانت الفتاة قد أحنت رأسها وتحدّق في المنديل الورقي الأبيض الذي كانت تطويه لتصنع منه شكلًا على هيئة حيوان. كانت خصلة طويلة من شعرها قد تدلّت كالكُلّابِ حتى أسفل أذنها. جال بنظره جانبًا ومن ثم ألقى نظرة خاطفة إلى الأعلى. كان كل شيء على حاله. كان البياض قد استفحل بشكل أكبر في شعرها. لكن تلك الشعرات البيض كانت ما تزال مخفية في عزلة شقيّة في غابة شعرها البني القاتم. أكان البياض قد استفحل بالفعل في شعرها؟ يبدو أن البياض قد تشجع من مخاوفه وهواجسه. وقعت عيناه على بضع شعرات بيض أخرى في مقدمة رأسها. يا للعجب! اجترع رشفة أخرى من كأس العرق.

"العين لا ترتوي من الرؤية"، قال كمن يتكلم دون وعي، وأضاف: "يبدو أن المرء يكتشف شيئًا جديدًا في كل مرة".

ما إن رفعت الفتاة رأسها حتى تجمّدت وانعقد لسانها. دُهشت دون أن تحرّك ساكنًا. سقط من يدها المنديل الورقي الذي كانت قد صنعت منه شكلًا على هيئة قطة. توجّس الشاب. ما كان عليه أن يتفوّه بما قاله. لكن ما الذي قاله؟ لم يكن يظّن أنه قد ثملَ إلى هذه الدرجة. لقد أخطأ وسها

مرةً أخرى، وأثار سخط واستياء يمامته الجميلة، فأراد جبر الخطأ.

"بالطبع، حين تكون المرأة التي تجلس قبالة المرء كالبحر المليء بالدرر واللآلئ المكنونة والنفيسة"، قالها بهدوء وتأنٍ كمن يدفع نفسه عنوة إلى الحديث. "السقوط في الحبّ لا ينتهي، يتكرر مرارًا، وتشعر دومًا أنك ما زلت في اليوم الأول". اليوم الأول؟ كيف كان اليوم الأول؟ أشرق كالشمس الساطعة من وسط الضباب وغدا أمام عينيه أكثر وضوحًا وجلاءً أكثر من أيّ يومٍ مضى. كان يومًا صيفيًا من أيام يوليو. كأنه كان قبل بضع دقائق. جاءته العبارة من حيث لا يدري ونطق بها، حتى هو لم يدرِ لمَا قال ما قاله. لقد شعر أنه زاد الأمر سوءًا وتعقيدًا. أصابه الذهول من نظراتها الحائرة وعينيها الجاحظتين. لقد ضحّى بالأيام الخوالي أيضًا وأثار غضب الفتاة بشكلٍ كبير. أكانت ستقول شيئًا ما؟ كان دومًا مغرمًا بها، ولم يتغير شيء غير شكل الغرام، أما أحاسيسه فما زالت كما كانت دومًا. كما كان أحمق! ألم يكن شكل الفتاة كما هو الآن حين دخلا معًا الخمّارة قبل قليل؟ حاول أن يتذكر اللحظات الأولى حين وصلا إلى الخمّارة، لكنه كان يلاقي صعوبة في تصوّر تلك اللحظات. حتى تلك الأحداث الآنية، التي وقعت قبل لحظات قليلة، يصعبُ على المرء تذكّرها. شعر أن هذه اللحظات القريبة ما هي إلا ذكريات قديمة وبعيدة المنال تسبح في بحر من الدخان. اضطرب الشاب، مدّ يده ليلتقط هاتفه المحمول الموضوع على طرف الطاولة، لكنه ضعق وارتجف في مكانه من صراخ الفتاة. كانت عينا الفتاة ما زالتا تحدّقان فيه بجحوظ حتى أنهما كادتا أن تقفزا من محجريهما.

"ما الذي دهاك؟ ما بِك؟"

نظر الشاب من حوله بحرج. دُهش وصُعق. لم يلتفت أحد إليهما أبدًا، ولم يرفع أحدٌ رأسه حتى. كان الجميع منشغلًا بنفسه، كأنهم لم يسمعوا الصوت أبدًا ولم يروا شيئًا؛ كانوا غارقين في حركاتهم السابقة دون أي تغيير في هيئتهم. التفت إلى الفتاة ثانية.

"انظري إلى نفسكِ!"

تفاجأ أنه تمكن من قول ذلك في نهاية المطاف. كان ما تفوّه به قد أحكم قبضته على وعيه ولم يترك له مجالًا لسماع ما قالته الفتاة، أو لم يسعفه لفهم ما قالته. أشتدّ عليه الدوار. ما الذي كانت تتحدّث عنه. أمسك معصمها وقبّل يدها بينما كانت تمدّها من فوق الطاولة لتداعب شعره المتدلي جانبًا. كان مطمئنًا أن ما يفوح من يدها ما هو إلا رائحة المسك الذي عطّرت به رقبتها قبل قليل. دمعت عيناه قليلًا من موجة الأحاسيس الجياشة التي أطبقت على قلبه قبل هنيهة.

"ما الذي دهاك يا فتى؟" كررت الفتاة قولها. نهضت من مكانها وجاءت لتجلس إلى جانبه. مسح أطراف عينيه بمنديل ورقي وأزال الستار المبتل والضبابي من فوقهما، ومن ثم نظر إليها ثانية. حدّق في الظلال الصغيرة على جلد وجهها المرتخي؛ أمّا تلك السحابات البيض التي كانت تتدلى من شعرها فوق جبهتها وتترك ظلًا هادئًا للجموح والرغبة اللتين كانتا تتوهجان ذات يومٍ في نظراتها، فقد ملأت قلبه حسرةً وأسى. كانت محبوبته قد هَرِمت، أو أنها كانت تهرم. بدا الأمر كما لو أنه قد ارتكب شيئًا آثمًا أو تفوّه بقولٍ خاطئ -مهما كان هذا الشيء أو القول- وكان هذا الفعل أو القول قد فعل بها ما فعل، لذلك أحزنه ما حلّ بها وألقى باللائمة على نفسه.

قال: "أنا قلق يا عزيزتي، أنا قلقٌ ومهمومٌ للغاية". احتضنها وضمّها إلى صدره وقبّلها. لامست أصابعه دون قصد الشعرات البيض في شعرها الأملس. بقي رأس الفتاة لمدة قصيرة -لم يستطع تحديدها- على صدره. كانت صامتة، وكأنها كانت تغفو على صوت دقات قلبه. حين رفعت الفتاة رأسها، بقيت بضع لحظات وهي تنظر أمامها إلى نقطة غير معلومة على الطاولة وتتنفس بعمق، ثم التفتت إليه بهدوء. كانت الدموع قد رسمت خطًا رفيعًا من رموشها السود حتى خدّيها. كان عليه أن يقول لها شيئًا ما، شيئًا يحمل الإيجاز والتأثير معًا. لكن ذلك الشيء الذي كان يعرف شكله فقط، لم يتحوّل إلى كلمة ليدركها فتسعفه. مرر يده اليسرى فوق أذنها وعبر شعرها وفرك فروة رأسها بأطراف أصابعه. شعر أن رأسها يميل قليلًا نحو يده وأن أذنها تلامس راحة يده. تدفّقت من أطراف أصابعه موجة من الدفء فارتعش جسمه من رأسه حتى أخمص قدميه.

"في الواقع"، بدا كما لو أنَّ فمه يتحرّك من تلقاء نفسه. "ما قصدته هو أني لم أكن أدري أنني أحبّك بهذا القدر. كان هذا ألذّ وأشهى من الحبّ الذي شعرت به في اليوم الأول، بل في سائر الأيام".

نال منه التعب، وسحب يده. سمع صوت الأغنية ثانيةً، كانت تتردد ببطء: "Mecnuna döndürdün mahvettin beni(5)...".

لقد أراد أن يعيش أبد الدهر في تلك اللحظة السحرية الخيالية ويتمرّغ في ذلك الحلم. تناول كأس العرق وارتشف منه. هبّت زوبعة داخل رأسه وتردد صخب في رأسه. قالت له الفتاة كأمٍ أيقظت ابنها من سريره

الدافئ وسط ذاك الحلم:

"رُبّما لهذا اشتعل رأسك شيبًا!"

5

بالنسبة للفتاة، كان الأمر أصعب من الموت. في البداية، كانت قد تبسّمت وضحكت حين قال لها الشاب إنها هَرِمت. أما ندماء الخمّارة وصخبها، فكانوا على حالهم؛ لا عِلم لهم بالكارثة التي حلّت بالفتاة والشاب. في الواقع، كان كلّ شيء في الخمّارة يراوح في مكانه دون أن يطرأ عليه أيّ تغيير. في حياتها، كانت هذه هي الدعابة الوحيدة التي لم تكن تستطيع تحمّلها وتجاوزها. تبسّمت، ولحظةً بلحظة امتد التّجهّم إلى زوايا وأطراف وتجاعيد وجهها، والتقطت الهاتف المحمول الكبير وهي في مزاج متوجّس. فتحت الكاميرا الأمامية ونظرت إلى نفسها دون أن تنتبه إلى الساعة التي كانت ما تزال تشير إلى الثامنة وتسع وثلاثين دقيقة. رمت الهاتف على الطاولة ونهضت عن مقعدها بهلع وفزع وهي تضع يدها على فمها المفتوح من شدة الصدمة. سارعت بالتوجه نحو الحمّام دون أن تنتبه إلى الكرسي الذي أوقعته أرضًا.

استغرقت عودتها وقتًا طويلًا حتى ظنّ أنها لن تعود ثانيةً. حين خرجت من الحمّام، ضلّت طريقها واتجهت صوب الطاولة "المحجوزة" التي جلس عليها رجل وامرأة بدلًا منهما. استغرق الأمر بعض الوقت حتى ميّزها الشاب وتأكد أنها هي. ما إن عادت إلى طاولتها حتى جلست بجانبه ووضعت رأسها على كتفه. كان جسدها النحيل يرتجف من رأسها حتى أخمص قدميها. توجّس حين حاول وضع يده على رأسها الرمادي. يا إلهي، ما الذي جرى؟ كيف حدث ذلك؟ حرّك يده كشخصٍ غريب - ومستهجنٍ لهذا الشعور- فوق ذراعها المُثقل باليأس والمتدلي شيئًا فشيئًا على جانبها. ضغط بلطفٍ على جسدها البارد وشدّها ببطءٍ نحوه. كانت

قد هَرِمت أكثر من ذي قبل.

"لا تبكِ يا حبيبتي".

حينها أجهشت الفتاة بالبكاء بصوت عالٍ ورفعت رأسها عن كتفه. لم يكن باستطاعته أن يشيح بوجهه عنها، أو أن يتفادى النظر إلى وجهها الذي يشعر بنفسه مذنبًا لأنه ينظر إليه؛ كان يشعر بالندم كلما نظر إليه. لقد نسي نفسه ووضعه تمامًا. استنفد كل قواه حتى أقنع الفتاة أنها تقدّمت في العمر قليلًا، لذلك نسي تمامًا أن يفكر في نفسه. كان هناك بعض الشعرات البيض من قبل في شعره، ولم يسبق له أن نظر إلى الشيخوخة كمعضلة جدية وخطيرة. بل كان يرى التغييرات، التي تطرأ على شعره ووجهه وجسمه وتصرفاته، دلائل على نضج روحه وشخصيته ويبتهج بها. لمَ كان عليه التذمّر ومعاتبة نفسه على مرحلة مقبلة من حياته، محطة من التقدّم بالعمر، أقرب إلى النهاية؟ ألم تكن كل تلك الأخيلة والآمال والرغبات أيضًا دعائم لنهايةٍ أو نتيجةٍ ما! منذ طفولته وهو يحبو ويجرّ نفسه بكل قوة وحماس نحو هذه النهاية، أراد دومًا القفز بسرعة وتجاوز الأعوام والأزمنة لبلوغ تلك النقطة التي لا شيء يليها. حتى جاء ذلك اليوم الذي تعرّف فيه على هذه الفتاة وبدأ هو أيضًا ينظر إلى الصحة واللياقة البدنية كشرطٍ لصحة الروح ونجابة العقل. كانت تمارين البيلاتس التي واظبا على أدائها في منزلها، والنظام الغذائي العشبي الطبيعي الذي كانت الفتاة تطبّقه، كطقوس دينية مقدّسة دفعته إلى تحويل نظرته إلى نفسه كجزءٍ من الطبيعة. بعد ثلاثة أشهر، حين اعتاد على الروتين اليومي للفتاة وأعجبته طريقة حياتها، كان أول شيء يخطر بباله هو أنّ نيتشه لم يكن مخطئًا في غضبه من

أفلاطون الذي ميّز بين الروح والجسد، فاعتبر الروح جوهر الإنسان واخترق المسار المستقيم الذي رسمه الفلاسفة الطبيعيون الذين سبقوا سقراط. لقد أخبرها بذلك أيضًا، لكن لم تكن الفتاة لتقتنع بشيء من هذا القبيل. حين أدرك الشاب أنها لم تستوعب ما قاله ولم يلفت نظرها البتّة، انصرف عن التوضيح والخوض في التفصيل، ورأى أنه يتوجّب عليه، هو نفسه، حماية ذاك الشيء المكنون خلف ستار الجسد والحفاظ عليه إلى الأبد مهما حمل معه الزمن من أحداث وتطورات. وها هو الآن يجابهُ وجهًا آخر لهذه الحرب التي لم يتمكن من استيعابها بعد، ولا يستطيع الآن تصديقها بهذه السرعة.

حين باشرت الفتاة بسرد التغيُّرات التي طرأت على جسدها واحدةً تلو الأخرى، دُهش لأنه لم يكن قد لاحظ غير بضعة تغيُّرات يسيرة من تلك التي أشارت إليها الفتاة. التجاعيد التي ظهرت على يديها، النضارة التي اختفت عن خدّيها وترهّلهما، ترهّل ذقنها، طلاء الأظافر الذي كانت قد وضعته مساءً على أظافرها قد اختفى تمامًا دون أثر، حاجباها اللذان تساقط الكثير من شعرهما وغدا أرقّ وأرفع، عيناها الصافيتان الجافتان اللتان غدتا تريان بشكلٍ ضبابي. كان بكاؤها يشتدّ كلما أسهبت في الحديث عن التغيُّرات التي طرأت عليها وكانت مخاوفها من القادم الأسوأ يهزّها ويزلزلها بعنف.

"قد تكون ساقاي الآن مصابتين بالدوالي، والترهّلات تغزو فخذي"، وأجهشت بالبكاء بشكل أشد. شدّها الشاب -كمن ضاقت به السبل وأحسّ بالعجز- بقوةٍ أكبر نحو صدره. نزلت دموعها وسالت على صدره. "لا أحبّ الترهّلات، لا أريدها".

بقيت مستسلمةً على صدره لبعض الوقت. هدأت شيئًا فشيئًا وانقطع بكاؤها، لكن صدرها كان ما يزال يصدر صوتًا كالخنين أو النشيج. مسح أطراف عينيه بمنديل ورقي، ثم جفّف دموعها ومسح وجهها بالمنديل ذاته. انسابت أصابعها المرتعشة رويدًا رويدًا عبر أزرار قميصه حتى بلغت صدره. تخدّر جسمه وتجمّد كقطعة جليد.

اعتقد أنها قد استغرقت في النوم على صدره حين جمدت كميّت دون حسّ أو حركة، لكنها نهضت ورفعت رأسها ببطء. كانت قد فتحت عينيها وتنظر إلى الطاولة بثقل ومكابدة عجوزٍ منهكة. رفعت رأسها أخيرًا، وضعت يدها بهدوء على يده ونظرت بعينيها المنهكتين إلى عينيه:

"هذا ليس حقيقيًا، أليس كذلك؟"

وضع يده الأخرى على يدها وعانقها. كانت تتنفّس ببطء. شعرت بطاقةٍ تسري في جسدها، حرّرت نفسها من بين يديه ودلفت إلى الجانب المقابل من الطاولة. حين انحنت لالتقاط الكرسي الذي كان قد سقط أرضًا، كشف انحناؤها عن ضعفٍ ووهنٍ واضحٍ في جسدها. تذكّر تمارين البيلاتس التي كانا يؤديانها في منزلها. كان جسدها المهفهف الغضّ يلتوي كأجساد النمور وتفوح منه رائحة الصبا. متى سيعود بهما الزمن إلى تلك الحال؟ ما كانا يعيشانه كان يجافي الواقع والحقيقة، أليس كذلك؟ تفاجأ أنه يحمل هذا الأمل الكبير في قلبه، وأنّ ما حلّ بهما ليس غير حادث خاطئ لا شك في زواله وعودة كل شيء إلى ما كان عليه من قبل.

كانت الفتاة جالسةً قبالته على الكرسي، تلتقط هاتفها النقال من

صحن الجبنة البيضاء. بقيت إصبعها الوسطى معلّقة في الهواء ومائلةً نحو شاشة الهاتف. رفعت رأسها ونظرت إلى الشاب. هل اشتعل شرار شبابها وتوهج في نظرتها؟ خفق قلبه بشدة، لكن الغبطة التي خلقتها رؤية شيء من الماضي، كرؤية صديق عزيز في الغربة، لم تدم طويلًا.

"لا أتذكر كلمة المرور".

وكأنها أدركت معنى ما قالته بعد أن تفوّهت به، ألقت الهاتف من يدها، وهي مدهوشة ومحتارة، ووضعت رأسها بين كفيّها. كان وجهها صغيرًا، وهو دائمًا ما أحبّ الوجوه الصغيرة. كان وجهها الصغير الآن يظهرها على هيئة عصفورةٍ صغيرةٍ بلّلها المطر. أراد التقاط هذه العصفورة الصغيرة واحتضانها.

"كنت أقول لكِ أنّه لا داعي لوضع كلمة المرور..."

متى كان يقول ذلك؟ وكأنه يتحدث عن زمن سحيق، اجتاحها شعورٌ بالحنين إلى الماضي. لكن متى كان هذا الزمن الماضي؟ ألم يكن ينتقدها ويعاتبها قبل بضعة أيام أو أسابيع على قفل هاتفها بكلمة مرور وإخفائها عنه؟ دفعه شعورٌ بالرحمة والشفقة إلى القول:

"آه على تلك الأيام الخوالي!"

"كيف لي الآن أن أشاهد صوري القديمة المحفوظة في الهاتف؟" حتى لسانها، كسائر أعضاء جسدها، لم يكن قد نجا من الشيخوخة، لكنها كانت تلجم نفسها عن الإشارة إلى الماضي كزمن سحيق. بعد عدة محاولات وتجارب فاشلة لم تفلح في فكّ شفرة الهاتف، وضعت الهاتف جانبًا في حالة من الضجر والعجز والتقطت كوب الماء وشربته. دهمها الصمت

وأطرقت؛ لا لأن العاصفة التي ضربت أعماقها قد هدأت، بل لأنها شعرت أنها تستطيع الآن مواجهة هذه الكارثة أو لأنها أحسّت أنها تستطيع تقبّل قدرها. تناولت ملعقة من اللبن بالبقل ومن ثم مسحت فمها بمنديل ورقي. انفصلت عن الواقع ونسيت عالمها التي تعيش فيه كطفل شاهد فيلمًا كرتونيًا واندمج فيه حتى نسي نفسه؛ تشوّش ذهنها كمغمى عليه وباتت تنظر من حولها كمن لا يرى شيئًا. وعلى حين غرة، وكأن هناك يدًا خفيةً قد أطفأت ذاك التلفاز الذي ذهب بعقلها وخيالها، التفتت إلى الشاب بأسى وغضبٍ عميقين:

"بالطبع، أنتَ لا تهتم بالأمر البتّة"، قالت وأجهشت بالبكاء ثانيةً، "أنتَ لم تهرم مثلي؛ لم ينل منك الشيب والكِبَرُ بالقدر الذي ناله مني".

6

طلب منها مرآتها، فتناولت حقيبتها السوداء من فوق نسخة السيناريو الموضوعة على الطاولة وأخرجت منها المرآة. ما إن أخرجت المرآة ذات الغطاء من الحقيبة لتمررها له حتى دهمتها نوبة من التردد. أطبقت جفنيها لوهلة، ووضعت إحدى يديها على غطاء المرآة المزخرف بالأحجار الكريمة الملوّنة، ومرّرت إصبعها فوق زِر الغطاء. هبّت من مكانها وأعطته المرآة، ثمّ أعادت الحقيبة إلى مكانها. تأمّلت حركات الشاب الهادئة بفضول وترقّب وهو ينظر إلى نفسه في المرآة. كان يميل برأسه ببطء لينظر إلى نفسه من الجوانب كافةً. ارتسمت ابتسامةٌ على وجهه. كانت مدهوشةً ومنزعجةً وهي تراه يتعامل باستخفاف وهدوء مع الموقف. ألم تكن خصلته هذه؛ قناعته بالكَفَاف ورضاه بكلّ كارثة أو مأزق أو سوءٍ حلّ به، سببًا في تدهور أوضاعه وافتقاره إلى حياة كريمة ومستوى مادي جيّد! كادت أن تنفجر غضبًا وهي تراه ينظر مطوّلًا إلى نفسه في المرآة باستخفاف ودون أن يأخذ شيئًا على محمل الجدّ. فجأة، أغلق علبة المرآة ووضعها على الطاولة والتفت إليها.

"شعر أشيب أفضل من شعر متساقط يا فتاة، دعكِ من ذلك"، قال ذلك ونهض من مكانه. "سأعود حالًا".

حدّقت الفتاة في كل شيء أمامها؛ بدت الطاولة مهجورة فجأة، واعترى شعورٌ بالقلق واليُتم قَلبها الذي كان يتألم وهي تنظر إلى الأواني التي بدت وكأنّها مرصوفة على الطاولة. أرادت أن تمسك زجاجة العرق وترميها لتتناثر قطعها على الأرض، لكنها كانت جامدة وعاجزة

كشخصية كرتونية غير قادرة على تحريك يدها. لم تكن مخطئة بأنها لم تستسغ رائحة العرق أو طعمه حتى ذلك اليوم. وكشيءٍ سخيف، ها هو السم قد جاء ليلدغها. لماذا كان عليها أن ترى هذا اليوم! كان عليها الاتصال بأمها. منذ وفاة والدها قبل ثلاث سنوات، كانت تتصل بأمها كل ليلة سبت، لكن حتى هذا الاتصال لم يعد ممكنًا الآن. لكن، حتى لو تسنّى لها الاتصال بأمها، ما الذي كانت ستقوله لها؟ كان هذا المأزق هو آخر ما يمكن أن يشرحه المرء لعجوزٍ سبعينية وحيدة لا تقوى على الاتصال بأحد أو كتابة رسالةٍ ما؛ عجوز أنهكها مرض السكّري وارتفاع ضغط الدم. لكن من المؤكد أنّ عليها الاتصال بها غدًا والتحدّث إليها كالعادة. كانت ستخبرها أنّها على ما يرام، وأنّ عملها يسير بشكلٍ جيد، وأنّ أصدقاءها أيضًا على أحسن ما يرام، وأنّ مديرها في العمل قد حصل على صفقة ضخمة أخرى، ولذلك فهم مشغولون جدًا ومنهمكون في العمل على إعداد مشروع بناء مجموعة من ناطحات السحاب الشاهقة جدًا. نعم، لا تزال تملك سيارة، كم مرة عليها أن تكرر لها ذلك؛ لكن لا، لا خطر على حياتها، كان هناك ملايين السيارات في المدينة، يوميًا يقع حادثان أو ثلاثة، وهي تستخدم سيارتها للذهاب إلى العمل فحسب. لم تصبح عانسًا بعد، بالتأكيد لا، تودّد لها عدد كبير من الرجال لكنّها كانت ترفضهم، فلتسأل أليف كي تتأكد. نعم، ما زالت أليف مداومة على عملها، وكانتا قد التقتاها قبل بضعة أيام. قبل بضعة أيام؟ نعم، كانتا قد ذهبتا برفقتها إلى مكانٍ ما، لكنها لم تعد تذكره الآن. هل حدث أيّ صدام بينهما فحدث جفاء أو نفور بينهما! لكن ما الذي حدث بينهما؟ آه، لم تكن لتسرد كلّ هذا للعجوز المتوجسة! أحيانًا، كانت تضيق بها ذرعًا فلا تقوى على الاستفسار عن بستانها وطماطمها وفلفلها وبقدونسها، بل وحتى عن

حاجاتها ومشاكلها. لكن إن لم تتمكن من تسجيل الرقم إلى هاتفها، فمن أين ستحصل على رقمها؟ ماذا عساها أن تفعل؟ لم تعثر على أيّ جواب.

عاد الشاب بعد مدةٍ لم تستطع إدراك طولها أو قصرها، ولم يكن لذلك أيّ معنى حتى. جلس على مقعده دون أن ينظر إليها. كان قد حلّ أزرار صدريته، وبدا متكوّرًا وأقصر من المعتاد. أقبل إليها بخطوات متثاقلة وجلس أمامها وهو يلهث من التعب، أدركت على الفور أنّ مدة طويلة قد مضت: عشرون عامًا. لكن ذلك كان يسري عليه فقط. حاولت جاهدة التقاط نظرات عينيه المتواريتين خلف دخان رمادي وهما تفرّان من نظراتها وتحدّقان بعناد في الجهات الأخرى. وها هي، بعد أن استوعبت الموضوع كلّه وأدركت تفاصيله، تحاول مواساته بعطف:

"ما زال حاجباك داكنين سوداوين كالسابق تمامًا".

في النهاية، استسلم لها، وحدّق بدوره في عينيها. ارتعشت يده وهو يحمل كأس العرق. أعادها إلى مكانها على الطاولة دون أن يرتشف منها. شَعَرَ بنوبة حمّى تسري في جسده، وانكمش كمن اقشعرّ شعر جسده.

"علينا أن نلزم هذه الطاولة، علينا ألا نترك مقعدينا"، قال. "رأيت ذلك في مرآة الحمام، كلّما نهضنا عن الطاولة حدث أمرٌ ما".

وكمن يصغي إلى أكثر الأشياء الروتينية والعادية في حياته، كانت تنظر إليه بهدوء وهو يشرح لها -متحمّسًا- كيف يدهمهما الزمن فيتغيّر إيقاعه ويحوّل لحظاتهما إلى أشهر وأعوام كلّما نهضا عن الطاولة، وخرجا من تلك الدائرة اللا مرئية التي لا حدود واضحة لها. رغم أنه لم يكن معتادًا على القَسَم، لكنّه أقسم قسمًا عظيمًا أنّه حين وصل إلى

الحمام ونظر إلى نفسه في مرآة الحمّام، كانت قد مضت مدة طويلة على تلك اللحظة التي نظر فيها إلى نفسه في مرآتها. كان قد ضُعقَ وهو ينظر إلى نفسه في مرآة الحمام؛ غدا جسده أكثر قصرًا وتكوّرًا. صحيح أنّه لم يكن يميّز كلّ تلك التفاصيل، لكنّه شعر أنّ النار قد اشتعلت بجسده، وأصبح جلده جافًا وخشنًا ومُجعَّدًا، وأنّ قدميه ما عادتا قادرتين على حمله، وأنّ سحنته غدت شاحبة، وخارت قواه. لذلك، ورغم أنّه سارع في خطواته ليصل إلى الطاولة على عجل، لكنّ جسده الهَرِم والثقيل أضاف عدّة سنوات أخرى على عمره الذي كان حين غادر الطاولة.

كانت الفتاة تصغي إليه دون أن يرفّ لها رمشٌ أو يتغير إيقاع شهيقها وزفيرها. بينما كان يتابع سرد قصّته لها، حرّكت يدها ببطء وفركت خدّها الممتلئ.

"أأسرعتَ إلى الحمام لتتأكد من ذلك؟"

قطع الشاب حديثه ونظر إليها بفضول. كان حائرًا في فهم حديثها؛ أكانت مستغربة من تصرفاته أم أنها كانت تتهكّم به؟

"لقد أدركت ذلك بالفعل"، أضافت الفتاة.

"ولمَ لم تخبريني بذلك؟"

"لقد استغرق إدراكي للموضوع بعض الوقت، كنت بحاجة لبعض الوقت حتى أفهم ما يجري"، قالت ذلك ورفعت يدها فجأة لتهزّها خلفه: "حين استوعبت الأمر، كنتَ قد غادرت".

حدّق بها بنظرات ملؤها التعجب والاستفهام وهي تنادي النادل الذي كان يرتدي ربطة عنق سوداء طويلة فوق صدرية بيضاء منسدلة حتى حزامه.

انحنى النادل ذو الناصية الصلعاء حتى بلغ مستوى رأسها وقال لها بالتركية:

"تفضّلي سيدتي!"

"لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على قدومنا"، قالت ونظرت إلى ساعة هاتفها. كانت ما تزال تشير إلى الثامنة وتسع وثلاثين دقيقة. "لا أعلم على وجه الدقة كم من الوقت مضى، لكن حين جئنا، كما رأيتم، كنت شابة وكان صديقي شابًا. لكن ما أن نغادر هذه الطاولة حتى يقع شيءٌ ما، ينال منّا العمر ونغدو هرِمَين". تنهّدت وسكتت لبرهة، التفتت صوب الشاب، كأنها أرادت تذّكر ما رغبت بقوله من خلال النظر إلى تعابير وجهه: "لا نعرف ماذا نفعل!"

استقام النادل وقال: "أحضرها لك حالًا سيدتي!" حمل وعاء مكعبات الثلج، وأدار ظهره بسرعة متوجهًا نحو المَشرَب.

انفجر الشاب ضحكًا. مدّ ذراعيه وفتحهما على الجانبين كمن يسبح بوضعية الصدر في مياه خيالية: "لا أعتقد أنّ هناك شخصًا واحدًا في هذا المطعم الكبير المكتظّ يفهم كلماتك هذه".

بعد هنيهة، جاء نادلٌ شاب حاملًا معه وعاءً لقطع الثلج ووعاءين آخرين من "أهل الكيف/ehli-keyf(6)" كي يضعا كأسيهما داخل

الوعاءين ليبقيا باردين. تحرّكت الفتاة بصعوبة، تناولت شريحة من التفاح وقالت: "لا أحد يفهم لغة العشّاق".

شحب وجهها؛ غصّ حلقها بقطعة التفاح. اغرورقت عيناها، فأمسك الشاب بيدها، وكانت باردة.

"كان خطئي، أنا المذنب" قالها الشاب. أمسك يدها وقبّلها كمن يطلب الصفح. بعد لحظتين أو ثلاث، سحبت يدها من بين يديه وتناولت كأس العرق من وعاء "أهل الكيف": "لن أشرب هذا العرق السمّ بعد اليوم!" قالت ما قالته وارتشفت العرق المتبقي في أسفل الكأس؛ شربته كلّه دفعة واحدة.

7

"والآن، ما الذي سنفعله؟" قالت الفتاة وانفجرت باكيةً بصوتٍ أعلى من قبل وانهمرت دموعها بغزارة، ربّما شجعها على ذلك اطمئنانها من أنّه لم يعد أحد يراهما أو يسمعهما. بعد أن أخذت المناديل الورقية التي قدّمها لها الشاب لتمسح بها دموعها ورمتها في الحال بغضب، نهض الشاب وساعدها على النهوض ليرافقها إلى الحمّام لتغسل وجهها. لكن ما إن خطوَا الخطوة الأولى حتى انسلّت من بين يديه كمن انهالت عليها صاعقة ما، وتوجهت مشوّشة بسرعة البرق نحو كرسيّها وجلست عليه.

"هل فقدتَ عقلك؟" قالت صارخةً. كانت عيناها قد احمرّتا.

تسمّر الشاب في مكانه وهو ينظر إليها بحيرة وتردد. بعد بضع ثوانٍ، أو بضعة أشهر، هرع بسرعةٍ نحو مقعده بعد أن أدرك ما كان على وشك القيام به. في الحقيقة، كان قد فقد عقله تمامًا، وكان جسده يرتعش. كان على وشك الولوج إلى ذلك العالم والتدحرج فيه مرةً أخرى.

ما إن رأت الفتاة وجهه الشاحب حتى استقامت أمامه مباشرة وقالت له: "تنفَّس، تنفَّس، تنفَّس بعمق! اشهق وازفر! اشهق وازفر!". شهقَ وزفرَ كمن يحاول الخلاصَ من قيدٍ يطبق على عنقه، شهق ثلاثة أنفاس من أنفه وزفرها من فمه كمن يتنهّد للتخفيف من توتره. استعادَ توازنه قليلًا، لكنّ التعب كان قد نال منه. نظرَ بصمتٍ إلى كلّ ما كان يحيط به. دهمهُ صوت الأغنية كلوحةٍ فنيّة، صورة مألوفة، التقطتها عيناه من بين الفزّاعات التي كانت تطغى على المشهد الماثل أمام عينيه: "Dalgalandım da duruldum koştum ardından yoruldum...

(7)" إذًا، كان كلُّ شيءٍ في ذلك المكان ما يزال على حاله، قال لنفسه.

"أتعتقد أنّه يتوجّب علينا مغادرة هذا المكان". قالت الفتاة دون أن يطاوعها لسانها على إكمال الجملة.

"لا أعتقد أنّ هذه الفكرة سديدة وستعود علينا بالنفع"، قالها الشاب. نظر إليها كأنهُ يقرأ أفكارها، وأضاف: "علينا أن نبقى حيث نحن وننتظر".

التفتت إليه الفتاة، حدّقت فيه وقالت:

"تعني أن نلزم مقعدينا ولا نتحرّك البتة؟ هذا يعني أننا محاصران وعالقان هنا؟!".

ومضت الأنوار الخافتة على ذراعيها الطويلتين العاريتين، فانتبه إلى ارتعاش جسدها تحت البلوزة الزهرية.

"ليس هنا فحسب"، قالها الشاب بهدوء، "بل في هذه اللحظة أيضًا".

أمسكت الفتاة هاتفها، ومن ثم سألته: "كم الساعة؟". "الثامنة وتسع وثلاثون دقيقة مساءً".

"أتساءل عن الدقائق الخمس عشرة، ما الذي حلّ بها؟" قالت، ثمّ أطلقت تنهيدة خفيفة بدت كترنيمة تنساب من فمها.

"لم يبقَ شيء بيننا بعد الآن"، قالها ووجهه يعتليه مزيج من التبسّم والحزن. لوهلة اعتقدَ -في الواقع آمن بكلِّ جوارحهِ- أنّها ليست إلّا لعبة عشق. "لقد ارتشفنا من شَهد الوصال". نظرت إليه الفتاة دون أن يبدر عنها أيّ ردّة فعل. لم تتغيّر سحنتها، ولم يطرأ أيّ تعبير على وجهها،

وهو ما أقلق الشاب. بحث عن طريقٍ يوصله إلى فك تلك العقدة في ذهنها. "ربّما يكرر نفسه في الوقت الحاضر"، قال. "في وقت الآخرين وساعاتهم"، أضاف.

التفتا معًا ونظرا إلى الأشخاص الجالسين على الطاولات المحيطة بهما، وكأنهما يمسحان ضبابًا تشكّل على الزجاج وحجب عنهما الرؤية. تاهت الفتاة في تأملاتها: أيعيش الجالسون على الطاولات المحيطة بها داخل دوائر زمنية غريبة كتلك التي يعيشان داخلها؟ في حياتها، كانت تلك هي المرة الأولى التي تريد فيها الدخول إلى حيوات الآخرين وتقمّصها؛ أرادت النهوض عن مقعدها والتغلغل إلى دائرتهم وكأن شيئًا لم يكن؛ أرادت الانضمام إلى قواعد لعبتهم. أرادت، على الأقل، مناداتهم ومناجاتهم كي ينظروا إليهما ويروا ما يعيشانه، ربّما أحبّوا لعبتهما وأرادوا الانضمام إلى تلك الدوّامة التي رأيا نفسيهما فجأة في دوائرها. لكنهم لم يكونوا مكترثين بهما، ما نظروا باتجاه طاولتهما ولا أظهروا أي قدرٍ من الاهتمام والقلق. فليكن ذلك، على الأقل لن تذهب إلى العمل غدًا. بالمناسبة، يوم الغد يصادف أيّ يومٍ من الأسبوع؟ إنّه الأحد. أحقًا يصادف الأحد؟! ربّما كان الأحد، يوم العطلة، أليس كذلك؟ أكان هناك شيء قد حلّ بهما وأصابهما بهذا الدوّار الذي كان يحول دون تمييزهما لأيّ شيء؟ كلّ شيء سينتهي بخير، كلّ شيء سيمضي بخير. كافحي، فكّري بإيجابية، ولا تدعي الطاقة السلبية تسود. من غير المستبعد أن يتبدد هذا الحال بعد فترة قصيرة ويتغيّر إلى ما هو أفضل.

"ما الذي سنفعله هنا؟..." لم يكن لديها أدنى فكرة عن عدم تجرؤها على متابعة سؤالها بالقول: "... حتى ذلك الوقت". نظرت إلى عينيه

باستهجان وبدلًا من تلك الجملة، أضافت: "... في ذلك الوقت؟".

"سنتحدّث".

"نتحدّث؟ أهذا هو الحلّ الذي اكتشفته لنا؟".

لم ينبس الشاب ببنت شفة. أطرقت الفتاة بوجهها عنه محاولةً تذكّر شيءٍ كان قد هَجَرَ ذاكرتها دون أن تفلح في اكتشافه. إذاً، حين يهرم المرء بشكلٍ أسرع من المعتاد، تهرم الذاكرة بالسرعة ذاتها وتضمحلّ، قالت ذلك في نفسها. التفتت إليه، كان ينقر على الطاولة بأطراف أصابعه. حينها، انتبهت إلى الأغنية. طالما سيبقيان على ما هما عليه، فلمَ لا يستطيعان البقاء -كهذه الأغنية- دون أن يطرأ عليهما أيّ تغيير؟ ألم يكن التكرار، أو بجملة أخرى "البقاء على الحال نفسه" ممكنًا في حياة البشر؟ جالت ببصرها مرةً أخرى على الطاولات المحيطة بهما: الجالسون الذين كانوا يشربون ويتسامرون، والصور واللوحات المعلقة بالجدران، والأسماك التي تسبح في أحواضها الزجاجية، لكنها لم تدرك التكرار والاستمرارية في أحوالهم، حتى إنها نسيت أشكالهم الأولى. أتركت تلك الكارثة التي حلّت بهما ذاكرةً تتذكر أو عقلًا يدرك؟

"عن ماذا تريدنا أن نتحدّث؟" سألته. فجأة توقفت حركة أصابعه التي كانت تنقر على الطاولة بالتناغم مع ألحان الأغنية.

"لِم أتينا إلى هذا المكان، أتذكرين؟".

شردت لهنيهة، وفكرّت.

"لا، لا أذكر، لم قدمنا إلى هنا؟".

"ارفعي حقيبتكِ".

"السيناريو الذي كنت قد كتبته!".

"نعم".

ابتسمت بلطفٍ فتجعّدت شفتاها الذابلتان المتواريتان خلف ظل بضع شعيرات بيضاء. بينما كان يقلّب الأوراق ويلقي نظرة على صفحاته، قالت له: "ينبغي أن يتمّ تكريمك. على الأقل تعرف سببَ مجيئنا إلى هذا المكان". وضع الملف الضخم على الطاولة، تناول الشوكة وقطّعَ شريحة الجنبة داخل الطبق بذوق خيالي.

"كنتَ ستحوّلنا في نهاية المطاف إلى ممثلين"، قالت بصوتٍ منخفضٍ بالكاد يُسمع.

"لم تكن هناك حاجةٌ للتمثيل"، قالها الشاب بحماس. "كنّا سنبقى أنا وأنتِ كما نحن. كنّا سنبقى كما نحن في الواقع، كنّا سنتصرف على طبيعتنا. كان نواف وعبد الله أيضًا سيتصرفان على فطرتهما، لأني لم أغيّر أيّ شيءٍ يُذكر في حياتهما. كان والداكِ شخصين خياليّين، لذلك ربّما كان يتوجّب علينا اختيار ممثلين لأداء دورهما. لكن، حتى لو نظرتِ إلى دورهما، فسترين أنّني اختصرت مشاهدهما وحواراتهما إلى أدنى حدٍّ ممكن".

"حتى اسمينا؟ هل استعملت اسمينا الحقيقيين؟".

حكّ الشاب رأسه، ومن ثمّ انحنى وأمسك ملفّ السيناريو. كان على وشك قلب الصفحة الأولى، لكنّه غيّر رأيه وأعاد الملف ووضعه على

الطاولة.

"كان اسمك سيكون بَرچَم"، قالها وصمت. حدّق في وجه الفتاة التائه في دوامة أفكارٍ غريبة. أشرقت عليها ذكريات زمنٍ تخيّلها فيه كـ"بَرچَم". ارتفع كتفاها العاريان قليلًا ولامسا عنقها.

"ألم يعجبك الاسم؟".

"أعجبني"، أجابته بصوتٍ مرتعش، وتنفّست مرةً أخرى بعمقٍ وتنهّد. أخفضت كتفيها ثانيةً: "كنت أقول لنفسي، إذا تزوّجنا وأنجبنا ابنةً، سنسمّيها بَرچَم".

"أحقًا فكرتي أنّنا سننجب أطفالًا في يومٍ ما؟".

لم تُجبه الفتاة. تناولت الكأس الطويلة وارتشفت منها.

"دعكَ من السيناريو الآن"، قالت، وأضافت: "لا أودُّ الحديث عن السيناريو الآن، فلنتحدّث عنّا نحن".

"نحن؟".

"نعم. فلنتحدّث عن الأيام الخوالي. كيف بدأت قصتنا. فلنتذكّر تلك الأيام". كانت عيناها تلمعان، فيما كانت الكلمات تتدفق من فمها حتى كاد الناظر يعتقد أنّها حبات خرزٍ تتناثر من سُبحَة منفرطة. "فلنتذكر معًا طالما هناك جزءٌ من الذاكرة لم ينضب بعدُ".

"مَن عليه أن يتحدّث في البداية؟".

"ابدأ أنتَ، تحدّث! بالمناسبة، ما كان اسمكَ في الفيلم؟".

8

"في ذلك اليوم الذي وقعت فيه عيناي على المرأة التي كنت سأعشقها طيلة عمري"، قال، وأضاف بعد صمتٍ ساد طويلًا: "كنت قد سئمتُ من هذا العالم وأمقته بشدة". لم يكن استرساله وتفكيره المطوّل نابعًا من عدم تذكّره لتلك الأيام، فقد كانت الأوقاتُ تلك ماثلةً أمام عينيه كما لو أنها وقعت قبل هنيهة. لكن حين دفعته صديقته نحو إعادة سرد القصة من البداية، بدأ يجول باحثًا عن الجملة المفتاحية كما لو أنّها كانت تحتضن كلَّ سحر المغامرة وقوّتها. فكّر مليًا محاولًا ابتداع شيءٍ ما، لكنّه عاد في المحصّلة إلى الفكرة الأولى التي أينعت في ذهنه. لذا، إن كانت هذه الجملة هي الجملة الصحيحة المرجوّة، وأمسكتُ طرف الخيط، فإنَّ كلَّ شيء سينساب بسلاسة.

"هممم"، همهمت الفتاة. "إنّها المرة الأولى التي أسمع فيها شيئًا من هذا القبيل، لكن أعتقد أنّها ليست المرة الأولى التي تتلفّظ بها بشيءٍ كهذا".

أحنى رأسه، ولم تسعفه الكلمات لوهلة.

"لا طاقة لي على إحصاء الكلمات الكثيرة التي سالت من قلمي، لا أستطيع أن أقسم أنّ قلمي لم يفعل ذلك" قالها الشاب في نهاية المطاف. "في الماضي، كلّما كنت أقع في حبّ فتاة، كنت أكتب لها، لم أكن قادرًا على البوح بمشاعري، كنت أخجل من الإفصاح عنها، لذلك كنت أدوّن أشياء غريبة وعجيبة. أما الآن، فهي تثير ضحكي".

"تثير ضحككَ؟" سألته. كانت عيناها تقدحان شررًا.

"يبدو أنّه لم يعد لديك ما تكتبه!".

التقط الشاب الجملة من فمها وأجابها بابتسام: "لا، بل لأن عقدة لساني انحلّت".

"لكنّكَ نفثت بضع رسائل في وجهي قبل أن تنحلّ عقدة لسانك".

ومضَ برق الذكريات المشتركة عليهما، فانقلب الطقس السائد وضحك الاثنان.

"ذهبَ كلُّ ما كتبتَه سُدىً".

"نعم والله، لم تُؤتِ الرسائل أُكلها؛ لم أتلقّ أيّ ردٍّ إيجابي. حينها، كنتُ أظنُّ أن من يقرأ كلماتي عليه أن يغيب عن الوعي انتشاءً".

"لقد انتشوا وغابوا عن الوعي! أعتقد أنّهم لم يفعلوا ذلك! تلك التي أمسكت يدها لأول مرة، زهرتك تلك"، قالت بتهكّم "ما كان اسمها؟".

"ياسمين"، قال. "هي بالذات، لم أكتب لها شيئًا. حين جاء دورها، كنتُ قد تركت الكتابة على الورق. كنّا قد تعارفنا خلال لقاء طلابي. كانت قد أُعجبت بأفكاري السياسية، أو بالأحرى لم تكن سياسية بالمطلق، فلنقل أفكاري الفلسفية. وبدوري أعجبتني آراؤها. فيما بعد، كانت مشاجراتنا في الجامعة قد تركت صدىً أكبر من الصدام بين الاشتراكية والرأسمالية. كنّا قد دخلنا حربًا لا هوادة فيها. لو لم يتم فصلي من الجامعة وسجني بسبب توقيعي على عريضة مطالبة بالتعليم باللغة الأم، لكنّا أنا وياسمين قد دخلنا نفقًا مظلمًا من المشاكل اللاّ متناهية. حتى قبل وقوع ذلك الحادث، كنّا في حالة يرثى لها بسبب نوبات الغيرة

والغضب التي تنتابنا. لكنّي لن أنكر ذلك، حين كنت قابعًا في السجن، كنت أفتقدها أكثر من أيّ شخصٍ آخر".

"ألم تزرك قط؟".

"لا!".

"لكنّك كنت قد قلت أنّها جاءت لزيارتك في السجن".

جاهد في التذكّر، وقال: "لقد كذبتُ عليكِ"، قالها بنبرةٍ هادئة غريبة، وكأن هذه الكلمة قد خرجت من فم الفتاة لا من فمه. "لقد غادرتْ صوب الجبال".

"حقًا؟".

"نعم".

أرادت الفتاة طرح سؤالٍ آخر، لكنها لم تقوَ على ذلك، فاستبدلت بسؤالها قولها هذا: "كنتَ قد كتبتَ بعض القصائد عنها".

"نعم"، قالها الشاب بهدوء. اتكأ برأسه على يده، التفت إلى القاطع الخشبي أمام باب الحمّام، وتابع قائلًا: "كانت الكلمات الأولى التي أكتبها بالكردية. لقد صادروا تلك القصائد أيضًا يوم دهموا غرفتنا في السكن الجامعي واعتقلوني. ربّما لاتزال هي أيضًا تحتفظ ببعضها، لكن لا أعتقد أنّها كانت قصائد جيدة، لأنّ أفكاري كانت طفولية حينها: كانت تصرّفاتي خرقاء وكلماتي هذر. لا أعلم كيف كان لفتاةٍ أن تحبني في ذلك الوقت، يصيبني الذهول وأنا أتذكّر ذلك".

"من منكما أحبّ الآخر أكثر، أنتَ أم هي؟".

"ألا تكفي كتابتي لتلك القصائد للإجابة على سؤالك؟" قالها بشكلٍ مباشر دون أن تتغير ملامح وجهه.

"لا أعلم"، قالت الفتاة، وأضافت: "لم أقرأ قصائدك، حتى لو حصلت عليها فلن أكون قادرةً على قراءتها".

"لم أعد أكتب القصائد".

"ألم يجمعكما شيءٌ آخر غير تلك القصائد؟" سألته الفتاة بشكلٍ مخادعٍ ستَرَ انزعاجًا مبطّنًا لم تظهرهُ.

أدهشهُ مكرُها. كثيرًا ما أخبرته أنّها تشعر ببعض الأشياء، تحدس بها، فيما كان هو يردّ عليها بسخرية. وكما كان يتوقّع، كانت الخيبة مصيرًا للكثير من تنبؤاتها. لكن على كلّ حال، كان بعضها يصيب، وكانت هذه الإصابات النادرة تنسيها جميع تنبؤاتها الخائبة لتؤمن ثانيةً أنّها فتاةٌ تعرف، أو بتعبير أدق، تتنبأ بالأشياء وتحدس بها قبل وقوعها. في هذه المرة، لم تقل له الفتاة شيئًا عن ذلك، أو ربّما قالت له دون قصد، فاعتقد أنّها شعرت بشيءٍ ما. لقد تذكّر الآن: ما زال يحتفظ بأحد عشر قلمًا من أقلام الرصاص الخاصة بياسمين. في الواقع، كانت تلك أقلامه، لكنّ ياسمين كانت تستعمل في كل مرةٍ تزوره قلمًا من أقلامه في جمع شعرها ودفعه نحو الخلف عوضًا عن دبابيس الشعر، وكان قد جمع تلك الأقلام دون أن تشعر به ياسمين. في كل مرةٍ كانت تزور منزله، كانت تستعمل قلمًا مختلفًا لجمع شعرها وقلبه نحو الخلف. بالنسبة له، كانت تلك الأقلام تمثّل قصيدة مؤلّفة من أحدَ عشر بيتًا. حتى إنّها غدت الآن، بعد أن هبّ عليه نسيم الذكريات، قصيدته الجيدة الوحيدة. كان ما يزال

يحتفظ بتلك الأقلام، لكنّه لم يخرجها مرةً أخرى من مخبأها ولم ينظر إليها. كان ممتنًا وراضيًا عن قصته الحالية، لذلك لم يكن ينوي تدميرها.

"الفتاة التي تعرّفتُ عليها بعد خروجي من السجن"، غيّر دفّة الحديث، والتفّ على الموضوع السابق: "كانت طالبة".

"كانت تدرس الرياضيات، أليس كذلك؟".

شَعَرَ بقلبه يخفق بتناغم، وارتفع الموج في قلبه، لكنّ ذاكرته تلولبت.

"كانت تدرسُ علم النفس". تردد للحظة، وتقلّبت أفكاره ذات اليمين وذات الشمال. نَقَرَ بأصابعه على أطراف الطاولة وقال: "نعم، كانت تدرس علم النفس". لم يولِ الأمر اهتمامًا ولم يفكّر في السبب، لكنّه كان غير مرتاحٍ لتلفّظه بتلك الكلمة.

"كنتُ أدرّسها اللغة الإنكليزية. كانت تملك أحلامًا عظيمة وغريبة، لكنّ جملها وأحاديثها المطوّلة كانت تجعل من الصعوبة استنتاج شيءٍ عن ماهية وطبيعة تلك الأحلام. لطالما شعرتُ أنّها دجاجة حمراء تتفوّه بأحرف صغيرة. راقت لي كثيرًا، وبسرعة. في البدء، كان نقيق أحاديثها يبهجني إلى أبعد حدّ، وكان حماسها يثير خيالي ويبعث الأمل في روحي. عدا ذلك، كان كلّ شيء جيدًا، لكنها كانت تلفظ حرف السين كالثعبان، وهو ما أتعب أذنيّ ودفعني نحو السأم من أحاديثها. كان نطقها لهذا الحرف حادًا كرأس الإبرة ينخزني كلّما نطقَت به. أحيانًا، حين كنتُ ألتقي بنوّاف، كان يقول لي أنّ هذه الفتاة قد خدّرتكَ. أدركتُ مؤخرًا أنّها كانت تريد تجربة كلّ شيء معي، باستثناء الأشياء التي تبدأ بحرف السين. على سبيل المثال، لم نكن قد مارسنا الجنس (sex) معًا، لكن

كان عزائي في ذلك أنّي لم أكن حتى ذلك الوقت قد مارسته من قبل. كنت أقول لنفسي أنّنا يومًا ما سنتزوج، لكنّها في نهاية المطاف قالت لي إنّني لا أفهمها".

"وما الذي جرى بعدها؟".

"ذات يوم، حين كنتُ أشرح لها درس جُمل الوصل في اللغة الإنكليزية، قالت إنّها لم تعد قادرة على التحلّيق بخيالها؛ أغلقت الكتاب، جمعت مسوّداتها ووضعتها داخل حافظة الأوراق الصفراء المزرّرة، حملت حقيبتها ومضت".

"أعتقد أنّ تلك الفتاة كانت مجنونةً تمامًا"، قالت الفتاة، وأضافت: "من حُسن حظّك أنّكَ تخلّصت منها بسهولة وهدوء".

"لم تكن مجنونة، لكنها كانت غير راشدة".

"لاااا، لا تخدع نفسك، اسألني أنا، أنا أعرفها. صدّقني، لو أكملتما معًا لما عرفتما طعم السعادة قط. ربّما كنتما ستعتادان على الحياة وستكملان معًا، لكنّ بالطبع على حساب السعادة المهدورة، صدّقني. هذا الوضع غير صحيّ، كنتما ستختلقان المشاكل وتحوّلان حياتكما إلى جحيم مطلق. الفتيات أمثالها لديهن القابلية لدخول الأنفاق المظلمة وممارسة العادات الكارثية كالإدمان على تعاطي المخدرات، لأنهنّ لا يعرفن ما يردنه، ويدفعن بأنفسهن والمقربين منهن نحو الهاوية والضياع".

"في الواقع، لقد كانت طيّبة القلب ولطيفة. بعد ما حدث بيننا، زرتُ كلّيتها مرات عدّة، لكنّها لم تكن تحادثني، فتوقفتُ عن الزيارة".

"حسنًا ما فعلت".

"كان هذا رأي نوّاف أيضًا. منذ أيام صداقتنا الجامعية كان نوّاف شخصًا عقلانيًا وبارد الطباع، وكنت أئتمنه على أسراري وأؤمن بأفكاره وآرائه. منذ البداية حذّرني وقال لي إنّها لا تناسبني، قال إنّ طريقة تفكيرها تختلف عن طريقة تفكيري. ثمّ قدّمني إلى إحداهن، كانت معلّمةً في المدرسة التي يدرّس فيها. كنتِ دائمًا تطعنين فيّ وتقولين إنّني ما زلت ميّالًا لها وأحبّها، أتذكرين؟ في الحقيقة، لم أكن أتذكّرها قط، وكان ذلك يثير دهشتي أيضًا، لأنّني حين كنتُ على علاقة معها، كنتُ أقول لنفسي إن كان هناك شخص يستطيع فهمي والتناغم مع أفكاري فبالتأكيد ستكون هذه الفتاة".

"ألأنّك مارست معها الجنس؟".

"لا!" تعثّرت يده بالكأس الفارغة، فأعادها إلى مكانها. تدبّر للحظة دون أن يظهر ذلك، ومن ثمّ قال: "نعم"، قالها بتردد. "لا أدري، كانت أكثر نضجًا منّي، لكنّها لم تكن تحرجني بالقول إنّني غير ناضج. وقتها، كنت أعي بعض الأمور بشكلٍ أفضل. كنت أشتري لها الجوارب الملوّنة في أعياد ميلادها. كانت المرة الأولى في حياتي التي أبتاع هديةً لإحداهن في عيد الحب؛ كانت أزهارًا صفراء. كانت تؤمن دومًا أنّ الأزهار الصفراء تجلب للمرء حسن الطالع. لكن دون أن أعرف السبب، جاء اليوم الذي لم تكن فيه تلك العلاقة تسعنا، ومن ثم لم يعد أحدنا يطيق الآخر. كانت تقول إنّني بتُّ أشبه سائر الرجال. كان من الصعوبة بمكان أن أدافع عن نفسي في وجه رأيها الراسخ الذي تجمع فيه جميع الرجال بالخيانة

والنميمة وانعدام الضمير".

"لم تجد أحدًا بجانبها يومَ مرضَت"، قالت الفتاة بتنهُّد وهي ترمُقه. أحبَّ البياض الذابل الذي وسَمَ وجهها. كانت الحيوية الفائضة التي تتدفق من أطراف عينيها نحو ظلال الجِلد المحيط بهما يزيد من حُسنهما وسحرهما. لاحظ أنّه لم يتخيّل أبدًا أنّها ستكون في شيخوختها على هذا النحو. حار في أمرها، وشعر أنّها ما زالت على ذات القدر من الحُسن والجمال الذي كانت عليه حين كانت شابة، ولو كان قادرًا على مغالبة عقله لقال إنّها قد ازدادت حُسنًا وبهاءً.

"قلت لها إنّني سآتي، لكنها رفضت. كانت قد أُصيبت بحمّى خفيفة، ويؤلمها رأسها. كنت أعمل على ترجمة نص للدبلجة، وينبغي عليّ أن أنهيه في اليوم التالي. كنتُ في ضائقة، وحصلت على تلك الفرصة بشقّ الأنفس، لقد توسّلت إليهم كي أحصل على تلك الترجمة، ولكِ أن تتصوري ردّة فعلهم لو لم أنجز الترجمة في وقتها، ربّما كانوا سيتوقفون عن إشراكي بالعمل في الدُبلاج أيضًا. ودَعكِ من ذلك، فليذهب العمل إلى الجحيم، لكنّي أشعر بالخجل حين أعِد أحدًا بشيءٍ ما وأنكث بوعدي".

"لا أحد يلوم شخصًا إذا واجه موقفًا طارئًا وإنسانيًا كهذا. أنتم الرجال لا تفهمون هذه الأمور".

"ظننتُ أنّها مجرّد نزلة برد لا أكثر. كانت قد أُصيبت بحمّى خفيفة. أخبرتها أنّني سآتي وأسعفها إلى المشفى، لكنّها رفضت وقالت أنّه ليس هناك أيّ داعٍ لذلك. قالت أنّها ستحتسي بعض المشروبات العشبية وتنام، فقلت لنفسي أنّها ستتعرق وتتعافى".

"أنتم الرجال تعتقدون أنّ كلُّ ما لقّنته إياكم أمهاتكم وأنتم أطفال هو أمر صحيح بالضرورة ويشفي كلّ علّة".

"حقيقةً كان ذلك ينجح كثيرًا. كلّما تعرّضتُ لنزلة برد، كنتُ أتغطى بالبطانية وأتعرّق، ثمّ...".

"تعرق"، نفخت في الهواء بحزن واستهزاء، وتورّم خدّاها. لم يكن قد رأى مثل هذه الابتسامة الساخرة على وجهها من قبل.

"لقد كانت المسافة طويلةً جدًا، تعرفين موقع منزلنا. كنتُ في أقصى طرف المدينة وكانت هي في الطرف الآخر، وكان المطر يهطل بغزارة، كان غزيرًا جدًا إلى درجة أنّه كان من الصعوبة على المرء أن ينظر من النافذة إلى الخارج، لم لا تحاولين فهمي؟ والله وبالله لو متُّ في تلك الظروف ولم تزرني لما عاتبتها قط. كنت سأتفهّم ذلك".

Telegram:@mbooks90

"أنتم الرجال لا تفهمون ألم المرأة. لا تقارن نفسك بها".

لم ينبس ببنت شفة. كيف انتهى بهما الأمر إلى هذه النقطة؟ أفزعه الشؤم الكامن في هذا الحديث، وبحث عن مخرجٍ من هذه المتاهة فلم يحالفه الحظ.

"المرأة لا تنسى أبدًا"، قالت الفتاة والتفتت إليه بوجهٍ هادئ. نظرتْ إليه نظرةً هادئةً تستر وميض مكرٍ في عينيها، وقالت: "دعكَ من تلك القصة! لا أريد سماع تتمتها، لأني أعرف تفاصيلها. أعرف كلّ شيء، نعم كلّ شيء، لا لأنّك أخبرتني من قبل، بل لأنّ حدس المرأة فيّ يعرف كل شيء، أكثر منك حتى. إن تابعت على هذا النحو، فلن نصل أبدًا إلى قصتنا".

9

"مرةً أخرى بقيتُ وحيدًا. وحيدًا دون عشيقة، بل ودون عشق. لم أكن أملك عملًا ثابتًا، ولا دخلًا جيدًا يعينني. وغالبًا ما كان شريكي في السكن، نوّاف، يدفع أجرة المنزل عنّي. وحين كنت أشعر بالضيق والخجل، كان يواسيني بالقول: "لا عليك يا صديقي، إن كتبتَ نصًا جيدًا، فستدفع ديونك". لم أكن أتلقّى أيّ مقابل مادي لقاء القصص التي كنت أكتبها وأرسلها للنشر في المجلّات الكردية. لا أظنّ أنه كان يجني أيّ أموال من النصوص المسرحية المونودرامية التي كنت أكتبها أنا ويؤديها هو. كان نوّاف يشعر بخيبة أمل من أداء المسرحيات بالكردية وهو يرى جمهوره المكوّن من طلبته المنحوسين الذين كانوا يأتون إكرامًا له ويملؤون صفًا من المقاعد في مقدمة المدرّج، أو طلاب الجامعة، أو الكرد المقيمين في تلك الأرجاء، والذين كانوا يأتون إكرامًا للغة المسرحية، الكردية، والتي كانوا يقولون أنّهم لا يفهمون شيئًا منها، وحين يشاهدون العرض يقهقهون ضاحكين في الوقت غير المناسب ظنًّا منهم أنّ ذلك المشهد يستدعي الضحك. لذلك كان نوّاف يدفعني نحو كتابة النصوص السينمائية والتلفزيونية، مجادلًا إياي بأنّ المال والمستقبل كامنان في هذين المجالين. لكن على كلّ حال، كنت أتقاضى منه مبلغًا لقاء تلك النصوص المسرحية القصيرة التي كنت أكتبها له. ربّما كان يقدّم لي تلك المبالغ لكي يرتاح ضميره، لأنّه بالرغم من ممارسته للعمل السياسي خلال حياته الجامعية، إلّا أنّه لم يوقّع على العريضة المطالبة بالتعليم باللغة الأم. حتى إنّ قبولي في بعض الوظائف كان بفضله: تقديم دروس خصوصية للطلاب، والدبلجة الكردية، وبعض

الأدوار الثانوية في بعض مسرحياته، وبضع تراجم في مجال الرسوم المتحرّكة. أحيانًا، بعد انتهاء عروض المسرحيات الكردية ذات الحضور الجماهيري الضعيف، لم يكن يغادر خشبة المسرح إلى خلف الستار أو الكواليس الصغيرة، بل كان يشعل سيجارة ويجلس في مكانه على خشبة المسرح. كنت أغادر بهدوء مقعدي المجاور لمقعد تقني الصوت والإضاءة، الذي كان بدوره يدخّن سيجارته بملل وضجر لتتصاعد منه خيوط الدخان الزرقاء الشفافة وتملأ القاعة المفعمة بالسأم، وأتّجه صوب نوّاف لأجلس بجانبه. كان يقول لي برجاء مستتر: "لو كتبتَ بعض النصوص بالتركية أيضًا..." لكنّه كان يعلم جيدًا أنّني لن أكتب شيئًا بالتركية. كنت أتمرّغ في هذه الحالة البائسة السوداوية ونحن على أبواب شهرٍ جديدٍ لا أملك فيه -كالعادة- أجرة المنزل. كنتُ أصعد منحدر شارعنا وأنا في وضع يُرثى له، كنتُ في حالة حزنٍ شديد، وللمرة الأولى في حياتي شعرت أنَّ الموت أيضًا طريقٌ للنجاة من الضيق والأسى حين مررتِ بجانبي ولمحتكِ عيناي".

"لكن فيما بعد، حصلت على تلك الوظيفة العجيبة".

تبسّمَ. "نعم، في نهاية الأمر، عثر هذا الربّان الغريب عليّ، ووظّفني في أغرب وظيفة على وجه البسيطة، وهكذا تخلّص مني نواف أيضًا، وبات قادرًا على أداء المسرحيات بالتركية وهو مطمئن، وأعتقد أنّها تدرّ عليه بعض الأموال أيضًا".

"حقيقةً، هذا القبطان غريب الأطوار. لكنّه لا يدفع تأمينك الصحي، أليس كذلك؟ لو كان هناك تأمين أيضًا...".

"لا، لا يدفع التأمين. لكنّه عمل جيد بالنسبة لي، لا أتحرّك قط، أجلس في قمرة الربّان وأفكّر كما يحلو لي. أحيانًا، حين أترجم له الأخبار من الصحف وأقرؤها، أغوص في الأفكار والأخيلة فتأخذني بعيدًا، وأسهو عن نفسي وأقول له أشياء أخرى مختلفة. كتبتُ عددًا لا يحصى من القصص مُذ عرفته وبدأت العمل لديه".

"أتكتب، أين هو نتاجك؟ لا أحد يقرأ، حتى إنّك لم تطبعها بعد، أليس كذلك؟ قلت إنّك تحدّثت مع عبدالله، إلى ماذا توصّلتما؟".

"قبل فترة زرتهُ برفقة نوّاف. حدّثته عن كتاباتي. كان قد قرأ بعض قصصي المنشورة في المجلات، وقال لي إنّه لاحظ بعض النواقص فيها. قلت له إن القصص الجديدة أفضل، فطلب مني إرسالها إليه. ربّما أراجع القصص المنشورة أيضًا وأرسل له مجموعة مختارات منها".

"سترسلها؟" رفعت الفتاة إحدى حاجبيها ورمقته بنظرة.

"كنتُ سأرسلها"، قال وأطبق جفنيه ببطء.

"قد يقرأ ربّانك غدًا صباحًا هذا الخبر العجائبي في الصحيفة"، قالت الفتاة مبتسمةً وهي تهزّ كتفيها.

"لكن من سيقرؤها له؟" قال. انحنى نحو الطاولة ووضع ذقنه في كفّة يده.

"كيف جاء وطلب منك مثل هذه الخدمة؟ أتذكر؟ إنّه حقًا شيءٌ غريبٌ جدًا".

"نعم. كان قد سمع صوتي من الأفلام الوثائقية والرسوم المتحرّكة

المدبلجة التي كانت تبثّها إذاعة (TRT 6) الحكومية. من الغريب أنّه كان يستمع إلى قناة إذاعية لا يفهم شيئًا منها، إنّه أمرٌ عجيبٌ للغاية".

"أعتقد أنّ دافعهُ كان الفضول فحسب، أو ربّما كان يحب الاستماع للأصوات الغريبة واللغات الأجنبية".

"كان يقول لي وهو يستمع إلى الأخبار إنّ هذا العالم قد خلا من الخير تمامًا، وأنّه يكاد يحتضر، لذلك كان يريد الاستماع إلى أخبار وحوادث العالم بصوتي فقط، وبلغةٍ لا يفهم شيئًا منها. ربّما كانت هذه الطريقة تساعده بشكلٍ أفضل على التحمّل. كلّ صباح، مع انطلاق الرحلة الأولى، ونحن في قمرة قيادة الباخرة، كانت الأخبار التي أقرأها له بالكردية من ثلاث صُحفٍ تركيةٍ تضيء له العالم بشكلٍ أفضل وتحوّله إلى مكانٍ أكثر ألفةً".

"ربّما كان يفهم الكردية، وكان يكذب عليك!".

"لا، لم يكن يكذب. ولماذا عليه أن يكذب؟ كان تركيًا أبًا عن جدّ".

"وما أدراك؟".

دُهش ولم يتكلّم أبدًا. حين رأته يلازم الصمت، أضافت بالقول:

"هل سبقَ وحادثته عن هذا الأمر؟".

هزّ الشاب رأسه بالنفي.

"ربّما كانت له حبيبة كردية فيما مضى"، قالت، ثم تابعت: "أو ربّما تربطه صلة قرابة بالكرد".

"لا أدري. في الواقع، هو لم يكن يتحدّث عن نفسه أبدًا، وأنا أيضًا لم يساورني الفضول لأسأله. حياته ألهمتني في كتابة إحدى قصصي، ولم أكن أريد أن تلوّث الحقائق الصادمة تلك الحبكة التي رسمتها في ذهني".

"أقرأت له تلك القصة؟".

"بالطبع لا. لم يكن يعلم أنّي كاتب. لم أكن أتحدّث له عن حياتي، كنتُ أقرأ له الأخبار فحسب، كانت هذه هي وظيفتي".

"أيّ نوعٍ من الأخبار كنتَ تقرأ له في الغالب؟".

"لم يكن هناك نوعٍ محدّد، كنت أقرأ له جميع الأخبار، وإن لم يعجبه خبر ما أو لم يلفت انتباهه، كان يستوقفني عند قراءة العنوان أو الجمل الأولى ويقول لي: تخطّ هذا الخبر، وانتقل إلى التالي".

هزّت الفتاة كتفيها. أخرجت مرآتها من حقيبتها، وحملتها بتأنٍ وحذرٍ كما لو كانت تحمل فرخًا فقست بيضته للتو. نقرت الزرّ وأمسكت غطاء المرآة المذهّب المُزيّن بالأحجار الكريمة الملوّنة، وقرّبته من وجهها. تحوّل حاجباها المقوّسان إلى خطٍ مستقيمٍ وتشكّلت كتلة من التجاعيد في جبهتها. ضاقت المسافة بين عينيها اللتين احمّر طرفاهما بعض الشيء، انكمشت في كرسيّها. نظرت إلى الشاب وقالت له: "تخطَّ هذه التفاصيل أيضًا".

أومضت الظلال الزرقاء على السماط الأبيض للطاولة. "ما زلنا بعيدين عن قصتنا".

10

"في ذلك اليوم، بينما كنت أصعد منحدر حيينا، كانت هناك تعاسة أخرى تلفح روحي؛ لم أكن قد أنتجت بَعد شيئًا إبداعيًا يخلّد ذكراي، كان ذلك يضيّق عليّ الخناق أكثر فأكثر"، قال الشاب بهمس، وشعر على الفور أنّها أفضل جملة للبدء بالحديث. كان قد عثر على نقطة بداية جيدة، وأمسك بطرف الحديث من المكان الأنسب. لم يكن من الممكن بعدها أن ينحرف عن هذه النقطة، لذلك تمسّك بها بقوة وواصل على عجل: "لم أصبح كاتبًا جديرًا بالقراءة، ولم تحقق الكردية نِسَب قراءةٍ عالية. لقد كنت غارقًا في الشكوك وأصارع نفسي: لم تُسفر تلك العريضة التي وقّعناها عن أيّ شيءٍ يُذكر! بينما كنتُ غارقًا في ذلك اليأس المرير، توقفت سيارة أمامي: كانت "فولكس فاجن باسات بيضاء".

"آه! كم افتقد سيارتي! لقد كانت سيارتي الأولى".

"لقد سألتني عن مكانٍ ما...".

"كان مقهى كانافاري"، أجابته الفتاة ونظرت إليه ضاحكةً: "مازلتُ أذكر ذلك، أترى؟ أيّ يومٍ كان؟".

"الثامن من يوليو"، تذكّر ذلك فجأةً دون أن يتمكن من التأكد من صحة تخمينه.

جحظت عيناها. التقطت الهاتف وأضاءت الشاشة.

"ما زالت الساعة تشير إلى الثامنة وتسع وثلاثين دقيقة مساءً"، قالها الشاب، وأضاف: "لا حاجة للتحقق من الوقت".

"أدري"، قالت. "أنظرُ إلى شيءٍ ما".

حدّقت إلى شاشة الهاتف لبضع لحظات، ثمّ أغلقت الهاتف ووضعته على الطاولة، وتنهدّت بعمقٍ وهي تنظر إلى الأعلى.

"كشيءٍ عشته من قبل، شعرت الآن برائحة الإسفلت ورطوبة الأرض في ذلك المساء الصيفي بشهر يوليو"، تمتمت في قرارة نفسها.

كانت شفتاها تتحرّكان بحزنٍ خفيفٍ. "لم يعد المرء قادرًا على حساب المدة التي مضت على ذلك المساء!".

رفعا رأسيهما معًا كأنهما يشمّان رائحةً ويتنفسان سويةً، وصمتا لهنيهة. غَبَشَت عيناها قليلًا.

"أنزل زُجاج السيارة وسألتِني عن مقهى كانافاري"، قالها الشاب متابعًا.

"لم أكن أنا"، قالت فورًا. "تلك كانت أليف. كانت جالسةً إلى جانبي".

"بل كنت أنتِ"، قالها بإصرار. "أنا واثقٌ من ذلك. كانت ذراعك على المِقود، أحنيت رأسكِ ونظرتِ إليّ وأنت تخفضين صوت المذياع قليلًا".

"لكنني ما تكلمتُ قط، كانت أليف، هي من كلّمتك. أذكر ذلك جيدًا. ليتها كانت هنا الآن"، قالت. حملت الهاتف ثانيةً دون وعي وقصد، ووضعته جانبًا. بدا على وجهها البؤس واليأس مرةً أخرى. "ما الذي كنتُ أرتديه يومها، هاتِ أخبرني!".

"بلوزة سوداء، بلا أكمام، مقوّرة من الأمام حتى مستوى الصدر...".

"أوه! الرجل لم ينسَ الصدر والبلوزة المقوّرة من الأمام!".

"انتظري، كانت التنورة التي ترتدينها سوداء أيضًا، وكان السواد قد التهم أطراف شعرك المصبوغ بالأصفر الذهبي".

"ليت الزمن يعود بنا إلى تلك الأيام. أما الآن، فالبياض والشيب يلتهم كلَّ شيءٍ فيّ".

"كانت هناك قطعة صغيرة على شكل قرد أحمر وأبيض معلّقة في أعلى مقدّمة السيارة وتهتزّ راقصةً".

"نعم، لقد أهدتني إياها أليف حين اشتريت تلك السيارة، ونسيتُ أن أزيل ذلك القرد من السيارة بعد أن بعتُ سيارتي لصديقها الشرطي. عليّ اللعنة!".

ساد الصمت لبضع لحظات قبل أن تبادر بالقول ورأسها منحنٍ نحو الأسفل وهي تنظر جانبًا وتبدو هَرِمةً أكثر من أيّ وقت مضى:

"شيء غريب جدًا، أليس كذلك؟".

"ما هو الغريب؟".

"كنت أعتقدُ أن كلَّ شيءٍ يتساقط منّا؛ من جسدينا، ومن روحينا، ومن ذاكرتينا قطرةً قطرة"، كانت تتكلّم بشكلٍ متقطّعٍ وتتنفّس ببطء. "بعد أن ابتلعنا تلك الدوّامة وأثقلت سلاسلُ الشيخوخة كاهلينا، اعتقدتُ أنّ كلَّ شيءٍ داخلنا سينتهي؛ كلُّ شيءٍ سيمضي وستنضب روحنا وذاكرتنا. حتى هذه اللحظة التي نعيشها، كنت أعتقد دومًا أنّ الهَرَم أشدُّ وطأةً من الموت. لكن، كأنّي أتأقلم مع ما يحدث شيئًا فشيئًا، وأشعر بأشياء أخرى تنسكب في داخلي، وتملأ قلبي وروحي. كيف عساي أقولها، شيءٌ

كالظلّ، يتسرّب كالحرارة فيطلي جسدي. ها هي أشياؤنا المشتركة تنبعث تفصيلًا تفصيلًا، وتشرق على ذهني وذاكرتي واضحةً بيّنةً كالبرق ووميضه".

أطال النظر إليها بصمتٍ مطبقٍ وهو يهزّ رأسه بين الفينة والأخرى وكأنها لم تُطِل الحديث بهذا الشكل من قبل أبدًا.

"يومها، جعلتنا نجوب جميع شوارع "أسكُدار(8)" حتى حالفنا الحظّ في الاهتداء إلى ذلك العنوان الملعون"، قالت.

"كان هناك مكانٌ يحمل الاسم نفسه قد أُفتُتحَ حديثًا في ذلك الميدان، فقلت لنفسي إنه حتمًا المكان عينه"، قال. "لم أكن أعرف المكان الآخر قط".

"من المؤسف ألا يكون هناك مقهى "ستاربكس" في الحي الذي تعيش فيه"، قالت ومن ثمّ تبسّمت بلطف كأنها تسخر من نفسها. "حتى لو كان هناك فرعٌ للمقهى في حيّكم لما تغيّر شيء. وكأن الناس كانت شاردة يومها، لم يكن هناك من يدلّنا على ذلك المكان. هاتفت أليف صديقها الشرطي أكثر من عشر مرات، حتى أنه أرسل عنوان المقهى لنا على الخريطة، لكن عبثًا! لم يكن هناك أحدٌ يدلّنا على ذلك العنوان اللعين. فكّر في الأمر للحظة، لقد قال لنا الشرطي أن المقهى يقع قبالة مبنى حزب العدالة والتنمية، لكن لم يكن هناك أحدٌ يعرف أين يقع مبنى فرع حزب العدالة والتنمية في منطقة "أسكُدار". وكأنهم لم يصوّتوا جميعًا للحزب في الانتخابات الأخيرة!".

"أنا لم أصوّت لهم"، قاطعها الشاب بسأمٍ وضجر.

كانت هي وأليف قد انفجرتا ضحكًا.

"أذكر أنّكِ وأليف كنتما تسخران منهم. لقد فزعتُ قليلًا من ضغائنكما السياسية"، قال.

"أذكر كلَّ شيء، كلَّ شيء. كان هناك ازدحامٌ مروري شديد أمام فرع المقهى الآخر الذي أخذتَنا إليه عن طريق الخطأ. كانت هناك أعمال حفر في الساحة، ولذلك أغلقوا الطريق من إحدى الجهات. كان علينا قطع مسافة طويلة لكي نعود أدراجنا؛ لقد وجّهتَنا نحو طريقٍ مختصر محظور. أذكر أنّك قلتَ بعد أن سلكنا ذلك الطريق الممنوع: "كان هذا هو الشيء الوحيد الصحيح الذي فعلناه حتى الآن"، وهو ما أصابني وأليف بنوبة ضحك هستيرية. وأنِستُ لحديثك حينها".

"سعيدٌ جدًا أن ذاكرتكِ ما تزال فتيّةً وما تزال تستحضر جميع ذكرياتنا"، قالها الشاب مبتسمًا.

"لكني ما زلتُ لا أتذكر كلمة المرور الخاصة بهاتفي"، قالت بتجهّم.

"أتذكرين لحظة ركوبي سيارتكِ؟".

"نعم. قلتُ لك حينها أنّه يمكنكَ أن تركب السيارة معنا إن كان المكان الذي تقصده في طريقنا، ويمكنكَ أن تدلّنا كذلك على ذلك المقهى".

"كنتُ على بُعد خطوتين من الوصول إلى المنزل"، قال. "لكنّي وددتُ مرافقتكم. حين ركبتُ السيارةُ ومضت نحو مطلع منحدر شارعنا، نظرتِ إليّ في المرآة وقلتِ شيئًا ما".

"أأنت طبيب أسنان؟" كانت الموسيقى الصادرة من المذياع تمنعُ

سماع صوتها بشكلٍ جيد.

"تقصدتُ ذلك، كيف عرفتِ ذلك؟".

"أفهمُ الجانب النفسي للبشر بشكلٍ مُلفتٍ للغاية، أليس كذلك يا أليف؟".

"بالتأكيد"، أجابت أليف.

"أأنتِ أخصائية نفسية؟" لم يكن قد قرر توجيه السؤال إلى شخصٍ محدد؛ كان قد طرح سؤالهُ بتردّدٍ وخجل.

"أنا مهندسة معمارية"، أجابته الفتاة الجالسة خلق المِقود. كانت أمواج شعرها الكثيف قد انسدلت على كتفيها. "أليف أخصائية نفسية".

"لكنني لستُ طبيبًا"، قالها الشاب بهدوء وهو يتحرّك من منتصف المقعد وينحو جانبًا.

"يبدو أن يومنا هذا سيمضي بهذا الشكل الهزلي جدًا"، قالت أليف للفتاة وانفجرت الفتاتان ضحكًا.

"ليس لديكَ أدنى فكرة عن العجائب التي صادفتنا اليوم"، قالت الفتاة بعد أن انطفأت ضحكتها. كانوا قد بلغوا بداية الشارع حين أشار لها الشاب بأن تنعطف نحو الجانب الآخر من الطريق وتكمل الدرب نزولًا.

"عادةً ما أكون سريعة في تخمين طبيعة الأشخاص الذين أقابلهم، وكذلك أصيب في تحديد طبيعة عملهم، أليس كذلك يا أليف؟" كانت الفتاة تتابع حديثها، فيما كانت الموسيقى التي تُبثّ من المذياع قد توقفت وأفسحت المجال للإعلانات.

"بالتأكيد"، قالتها أليف ثانيةً.

"خاصةً حين يختلط الأمر عليها فلا تميّز رجل الأعمال عن الحمّال، وتنادي زبائن المقهى لتطلب منهم شيئًا ما، يحدث ذلك أيضًا...".

قهقهه الاثنان وانفجرا ضحكًا، وتردد صدى ضحكاتهما في مقدمة السيارة.

"لكن"، جاهدث كي تتابع حديثها وهي تمسك بخاصرتها من الضحك.

"لقد ميّزتُ هذا الأفندي حين اكتشفتُ أنه طبيب أسنان!".

"هاتِ منديلًا ورقيًا من تلك العلبة يا أليف"، قالت الفتاة وهي تمسح عينيها الدامعتين من نوبة الضحك الهستيري التي دهمتها.

"أصلحك الله! لقد زررت قميصك حتى الزر الأعلى في القبة!" كانت قد التفتت إليه وتابعت حديثها: "هذا ما خطر في ذهني فورًا. في الحقيقة، لم يسبق أن راجعتُ طبيب أسنانٍ من قبل، الحمد لله أسناني قوية جدًا". أطبقت أسنانها ودفعتها نحو الأمام: "إنها قويةٌ جدًا، أليس كذلك يا أليف؟".

"بالتأكيد".

"ماذا عساي أقول وأنتَ تشبه أطباء الأسنان إلى هذا الحدّ!" دهمهما الضحك مرةً أخرى، لكنه كان أخفَّ وأخفض هذه المرة.

"أعتقدُ أننا أصبنا اليوم بالجنون بشكلٍ رسمي"، قالت أليف. "حاولنا أن نستفسر عن العنوان من سيدة عجوز، لكنها فرّت هاربةً بمجرد أن أوقفنا

السيارة!".

كانت هذه هي المرة الوحيدة التي ضحك فيها. كانت الفتاة قد أحنت رأسها على المقود وتنظر إليه بين الحين والآخر من خلال المرآة الجانبية للسيارة وتُتمتمُ بكلمات غير مفهومة لنفسها.

"أما زلنا بعيدين؟" رفعت الفتاة رأسها فجأةً وحدّقت إليه في المرآة. تراءى لهم أول الشارع الخالي على الطرف الأيمن من الطريق. كانت هناك جرافة متوقفة بجانب الصفائح قرب موقع حفريات.

"لا"، قال. ثبتت عينيها لوهلة على المرآة. "إنه في ذلك الركن".

11

بعد أن تيقّن أنه ليس العنوان المطلوب، وأنه أخذهم إلى فرعٍ آخر من سلسلة المقاهي تلك، رأى نفسه مجبرًا على مرافقتهما إلى "باغلار باشي(9)"، إلى ذلك المقهى الذي كان الشرطي قد حدد عنوانه على الخريطة التي أرسل لهما صورتها بالهاتف. في نهاية المطاف، كانت أليف قد تنبّهت إلى ضرورة تشغيل تطبيق الخرائط، وكانت ترشدهم على طول الطريق إلى الالتفات نحو هذا الطريق أو ذاك، وتخبرهم إن كانوا ما يزالون بعيدين عن المقهى أم اقتربوا منه. أخيرًا، وصلوا إلى ذلك الطرف البائس حيث كانت لوحة حزب العدالة والتنمية، وعلى يسارها صورة رئيس الوزراء، تلوح في الأفق بأحرفها الكبيرة.

"أوه... هذا هو المكان المنشود"، قالت أليف وهي تترجّل من السيارة قبل الآخرين بسرعة لتعانق رجلًا ضخمًا.

هو أيضًا ألقى التحية -بفتورٍ- على الشرطي.

"هؤلاء عناصر الشرطة يعبدون المال عبادة"، قالت الفتاة. "لم أرَ في حياتي بخلاء مثلهم. قبل عدة أيام، ساومني ساعةً كاملة لأجل ٥٠٠ ليرة".

لم تعجبهُ لحية الشرطي التي كانت قد شابت كشامةٍ على ذقنه، وسرعان ما سحب يدهُ من يدهِ الطويلة الخشنة. ثم، ورغم دعوتهم الظاهرية له بالجلوس معهم وارتشاف فنجان قهوة بصحبتهم، كان قد ودّعهم وانحدر ماشيًا نحو منزله. شعر أن الخطوات القليلة التي تفصله عن المنزل باتت آلاف الخطوات. وما إن دخل المنزل حتى فتح الباب

المفضي إلى الشرفة ليلقي نظرةً على حبّات الجوز الذي كان قد اشتراه قبل يومين بـ"١٢٥" ليرة من إحدى الشاحنات الصغيرة المركونة على جانب الطريق. كانت الحبّات الأولى التي تناولها طرية ولذيذة جدًا. لم يكن يحبّذها قاسيةً وجافة. تذكّر حقل جدّه وأشجار الجوز التي كان يقطف ثمارها ويتناولها وهي خضراء قبل أن تيبَس. تذكّر لغة جدّه الكردية البليغة، فصاحته وهو يناغم بين جملها؛ يذكّر هذه الكلمة ويؤنّث تلك دون أن يخطئ منجله الحاد في قطف ثمار اللغة. كان يقشّر حبات الجوز المعدودة ويأكلها بينما كانت تلك الذكريات تمرّ في خاطره كأغنية تراثية تداعب قلبه وأحاسيسه. لكن لأنها كانت طريةً جدًا، كان قد أحكم الكيس الذي يحتويها ووضعه أسفل خزانة الملابس، فتسرّبت إليها بعض الرطوبة وظهرت عليها بوادر العفونة، لذلك فتح الكيس وفرش حبّات الجوز على طاولة الشرفة حتى تجف. لكن ها قد بدأ الدود أيضًا بالانقضاض عليها. حملَ الكيس وأعاد إغلاقه بإحكام ثم خرج من المنزل ثانيةً. لكن ما إن رمى الكيس في صندوق القمامة، الذي كان يبعد عن المنزل بضع خطوات، حتى شعر بألمٍ في صدره. فجأة ظنَّ أنه ضلَّ طريقه ودخل الشارع الخطأ والمنزل الخطأ. كانت الشمس التي تشارف على الغروب، توشك بدايةً على توديع رائحة أشجار تلك الأيكة التي بدَت على تلك التلّة كقبعة خضراء بترولية، ثم اندحرت أشعتها الخافتة نحو مياه البحر ناثرةً ظلال زمنٍ آخر على الشارع. حين كان يحدّق بصمتٍ في السيارات التي كانت تنحدر من أعلى الشارع وتمرُّ بجانبه وهو يمشي بخطوات ثقيلة نحو بيته، شعر أن الشَّفَقَ يطبقُ بكلّ ثقله على قلبه وأنفاسه.

دخل غرفته وألقى بنفسه على السرير. استلقى وأغلق عينيه. كان هذا هو الإحساس الذي يعرفه أكثر من الأحاسيس الأخرى ويتوقّعه مباشرةً، الإحساس الثاني بعد الزكام الذي كان يتوقع أنه سيُصاب به مع أول حكة في فكّه السفلي: كان قد أُصيب بحمّى الحبّ.

"كفاكَ كذبًا!" تلألأ وجهها وأشرق، وتنحنحت مباشرةً في مكانها. "أحصلَ ذلك وقتها؟".

قال الشاب: "ربما قبل ذلك أيضًا".

كان وجه الفتاة وهي تختلس النظر إليه من فوق المقود لا يفارق مخيّلته. وقتها، حين فتح عينيه، وقعت عيناه على بقع سوداء صغيرة على السقف الأبيض للغرفة. فوق السرير مباشرةً، كان هناك أربع ديدان متباعدة قليلًا بعضها عن بعض ومبعثرة. كانت ملتصقة بسقف الغرفة. حدّق فيها لوهلة وأمعن النظر. لم تكن تتحرّك أبدًا. كانت قد تداخلت مع بعضها البعض وشكلت ما يشبه قرص الخبز. وقعت عيناه على الصحيفة الموضوعة بالقرب من رأسه. تناولها وطواها حتى حوّلها إلى ما يشبه سهمًا أسطواني الشكل، وحاول النهوض لينظّف السقف من الديدان بتلك الصحيفة المطوية، لكنه حين مالَ بقوته على طرفه الأيسر شعرَ أن قواه قد خارت. أحسّ أن جسده قد غدا كتلة من الرصاص، ولا يقوى على حمله. إنه طرفه الأيسر ثانيةً، اللعنة! كان يعاني من مشاكل في أذنه اليسرى، وهو ما كان يسبّب له آلامًا في ركبته اليسرى. حتى إن السن الوحيدة المتسوّسة التي اقتلعها له الطبيب كانت في الجانب الأيسر. كل ذلك جعله يعتقد أن طرفه الأيسر شخصٌ آخر منفصل عن طرفه الأيمن، وأن موته سيكون حتمًا بسبب طرفه الأيسر الحساس المعتلّ

دومًا. ها قد فشل أيضًا في الاعتماد على ساعده الأيسر للنهوض من السرير، واضطر إلى الاستلقاء على ظهره ثانيةً، أيقن أن العضو الوحيد الذي ما يزال سليمًا في جسده السقيم هذا هو القلب. لكن يبدو أن قلبه الذي كان دومًا ملجأ للآلام والمآسي، غير مستعدٍ للبقاء تحت ثقل هذه الأعضاء المعتلّة كلّها. ربّما كان استخدام الكرد لكلمة القلب أيضًا للدلالة أحيانًا على اشتهاء المعدة للطعام(10)، قد سبّب له ألمًا قاموسيًا جعله يشعر بوخزٍ في قلبه ووجعٍ في بطنه. ضاق نَفَسَهُ وهو يرى أن كلّ العبث والتناقضات اللغوية الخاصة بالكردية قد انعكست على حاله. كانت الفتاة المتكئة على مقود السيارة تحدّق فيه من فراغ السقف الواسع عبر نظراتها الراقدة في دفء ورغد مهد التركية. كانت نظراتها التي تغطيه كستار، تمعن أكثر فأكثر في إيلامه. كان قلبه يخفق بشدة أكبر كلما اهتز زجاج النافذة مع نزول كلّ سيارة بسرعة من المنحدر وإبطائها أمام منزله. ليته بقي معهم. أين الضرر إن شرب معهم فنجان قهوة لا غير؟ لقد رافقهم طيلة الطريق وقضى وقتًا طويلًا في مساعدتهم. صحيحٌ أنه لم يكن هناك شيء مشترك جامع بينهم يلوح في الأفق، ولكنه كان على الأقل سيحظى بمعرفة اسمها. شيئًا فشيئًا هوَت صورة الفتاة من سقف الغرفة وتلاشت في الهواء. غرقت الغرفة في الظلام، كان هناك ثِقلٌ من علٍ يطبق على جسده. تاقت نفسه إلى كتابة قصيدة، لكن ذهنه لم يطاوعه بكلمةٍ واحدة حتى. بعد برهة، سمع صوت وقع خُطى على الدرج المفضي إلى الباب الخارجي للشقة. تناهى إلى سمعه الصوت الآلي الشديد للباب الخارجي ككلّ مرة، وبعد بضع خطوات أقبلت كظلٍّ صامت ساكن، دار المفتاح في قفل باب المنزل وفُتِحَ الباب مصدرًا صريرًا

مزعجًا عن مفصّلات غير مشحّمة منذ أمد. نزع نواف حذاءه من خلف الباب. كان لهاثه يشي بأنه لا يطيق صبرًا حتى يفكّ رباط حذائه الضخم. وعلى حين غرّة، وقبل أن يدخل إلى الغرفة، تفاجأ بصوتٍ ينبؤه بذلك الخبر العجيب.

"لقد حالفك الحظ يا رجل!" ظنّ أن باب الغرفة قد اهتزّ لشدة صوته. "إنه يوم سعدك. يا لنِعم الله".

فبادرت الفتاة بالقول: "لماذا؟ ما الذي حدث؟".

كانت الوحدة تضيّق الخناق عليها كلما أوغلت في استرجاع صور الماضي وذكرياته. كان تفتقد نواف وأحاديثه؛ تشتاق إلى طريقته الخاصة في تصوير الأشياء وشخصنتها بطريقة دراميّه. كانت كلّما زارت منزلهما، يضع طاولة ويضحكهما كفنّان مسرحي.

"هناك رجل غريب يبحث عنك في مدينة إسطنبول. يستفسر عنك ويقول إنه يريد لقاءك".

كان نواف قد قابل ذاك الرجل الغريب حين زار شركة الإنتاج للعمل في دبلجة فيلم كارتوني إلى اللغة الكردية. كان الرجل يضع قبعة من طراز فيدورا، ويرتدي معطفًا رماديًا طويلًا وواسعًا لدرجة أن رجلين ضخمين في حجمه كانا بالكاد سيملآنه. كان يجلس على مقعدٍ واسعٍ في صالة الشركة، بطريقةٍ تذكّر المرءَ بعرّابي عصابات المافيا. قال له إنه يعمل ربّان عبّارة وإنه يريد مقابلة صاحب التعليق الصوتي على الأفلام الوثائقية عن الدول الأجنبية. صار في حيرةٍ من أمره، خلال الأسبوع الماضي كان قد علّق صوتيًا على فيلمٍ وثائقي عن فيتنام، وغدًا سيزور

الشركة كي يعلّق على فيلمٍ آخر عن مالطا، لكن لم يخطر بباله قط أن أحدًا ما سيبحث عنه لأجل صوته، خاصةً أنه كان يقوم بالتعليق صوتيًا على النصوص التي كان يترجمها فقط، لأن جمله كانت أطول من جمل سائر المترجمين الآخرين، وكانت -وفقًا للمحرِّر- "أكثر الجمل تعقيدًا، ومليئةً بكلمات ممتعة وملفتة للانتباه"، ولم يكن بإمكان ملعّقٍ آخر أن يقرأها.

"أأخبرهم أنه يريد ذلك الصوت بمجرد وصوله إلى الشركة؟". سألته الفتاة وهي تتكوّر على نفسها، وكأنها كانت تريد تسجيل صدى صوته داخل مسجّلة قلبِها وتحليله فيما بعد.

"دُهِشَ كلُّ موظفي الشركة. أخبرني نواف أن صبري اعتقد أن الرجل قد ضلّ الطريق، ولذلك قال له إنهم يعملون على الدبلجة الكردية لا التركية، وأنه سأله إن كان لديه صحفٌ كردية حتى يقرأ له. كان يقول إن الرجل أجاب بحزم -ودون أن يتزحزح قيد أنملة- أنه يريده أن يقرأ له الصحف التركية بالكردية".

انفجرت الفتاة ضحكًا، لكنها لم تكن ضحكتها المعهودة وهي شابة. كانت عضلات وجهها بالكاد تتحرّك، وكان هناك شعاع مريض يسيل من عينيها.

قالت الفتاة وهي تلهث: "تذكّرت حال صبري. تذكرت مؤخرته الكبيرة وهي تتدحرج في تلك القاعة الواسعة. ها هو أخيرًا يلتقي شخصًا أكثر غرابة منه. لكن على أي حال، حتى صبري أيضًا ليس عاديًا، فرغم وزنه الزائد ها هو يدير الشركة، ويشغل منصبي المحرّر والسكرتير".

"حتى إنه كان يقوم بتوصيل الشاي لهم".

"كيف بمقدوره أداء تلك المهام كلّها؟".

"كان هذا دأبه وهو طالب جامعي. كان بدينًا جدًا، ولكن نشطًا لا يعرف الراحة. لو كان نحيفًا مثلي لقلب الدنيا رأسًا على عقب؛ الله وحده يدري عما كان سيفعله لو لم يكن بدينًا".

وقفت الفتاة وحدّقت فيه قائلةً: "مثلك؟ ألم تعد ترى نفسك!".

شعر بذلك حينها؛ كان قد سحب مقعده إلى الخلف قليلًا لأنه لم يستطع أن يضع إحدى رجليه على الأخرى أسفل الطاولة كما كان يفعل سابقًا. في آخر مرّة ذهب فيها إلى الحمام، اضطر إلى شدّ الحزام على خصره في ثقبٍ أقرب. الآن، وهو ينتبه إلى البدانة في جسده، بات يلاحظ الثِقل حتى في أنفاسه. وها هو يقف مذهولًا وهو يرى روحه تتكيّف وتتقبّل بسهولة الحال الجديدة لجسده.

باغتته الفتاة وهي تسحبه من الذهول والحيرة التي كان قد غاص فيهما حتى شحمتي أذنيه: "بعد أن سمعت كل هذه الأخبار، أعتقد أنّك نسيت كل شيء عنّي حينذاك".

أجابها الشاب مبتسمًا: "كان جانبي الأيسر قد تحسّن حينها". ثم تابع، "أعطاني نواف رقم هاتف ذلك الرجل، وقال لي إنه قد طلب منه أن يؤكد عليّ كي أتصل به".

"وهل وافقت على الاتصال به ليلتها؟".

"لم أكن قد استوعبت الموضوع حتى. كان شيئًا أشبه بالدعابة. سألت

نواف عما يجب عليّ فعله، قلت له بماذا تنصحني؟ فقال: إن كان الأجر جيدًا فلا تهدر الفرصة. قال إنني لن أجد عملًا أفضل".

فقالت الفتاة دون وعي: "عملًا أكثر غرابة"، ثم وضعت يدها على فمها والتفتت بوجهها يمنةً ويسرةً كما لو أنها شعرت بأنها رفعت صوتها دون إرادتها. لكنها تذكّرت على الفور أن... "أغرب شيء قد يكون هذا الذي يعيشانه"، أضافت بصوتٍ خافتٍ وهي تجول بعينيها على دورة الحياة التي كانت تتكرر حولهما.

"اتصلتُ به بعد أن شجعني نواف. قال لي الرجل أن أستعجل في زيارته، وكان له ذلك. في اليوم التالي، وبعد أن انتهيت من التعليق الصوتي على الفيلم الوثائقي الخاص بمالطا، صعدتُ على ظهر الباخرة الكبيرة لـ"جزر الأمراء" في كاباتاش(11)، وفي قمرة القيادة، كانت المرة الأولى التي أستمع فيها إلى صوتي عبر المذياع".

"أعتقد أن الحلقة كانت عن الصين أليس كذلك؟ كنت قد ذكرت ذلك من قبل...".

"بلى. كانت واحدة من تلك الحلقات القديمة. في بادئ الأمر، لم أتعرف على صوتي. لغة كردية وجملٌ مألوفة... ها أنا ذا أستوعب ذلك الآن. حقيقةً، كان صوتي جميلًا بشكلٍ لا يُصدَّق! حتى أنا أيضًا أحببت صوتي. لو كنت أعي عذوبة صوتي لربما كنتُ فكّرت في الغناء والعمل كمطرب". دهمته نوبة ضحك، قهقهَ وهو يغنّي: "Yar deyip de sinene sarsan beni..."(12).

"هل كان لديك شغفٌ لتصبح مغنّيًا؟".

"حين كنتُ طفلًا، كان الطفل الذي يحسن الغناء يلقى معاملةً رائعة؛ كان سيّد عصره. كان الجميع يحبّه، وكان يتجوّل كديكٍ صيّاح بين زملاء المدرسة وأصدقاء الحي. في منزلنا، حين كنت أنا وأخوتي الستة نهجع إلى النوم في غرفتنا المشتركة التي كانت تُبسَط بأفرشتنا المتلاصقة، كنّا نتناوب على أداء أغاني الرقص الكردية حتى يغلبنا النوم جميعًا. أو بالأحرى، كنّا نغنّي دون كللٍ أو ملل حتى تلك اللحظة التي تقتحم فيها والدتنا الغرفة بغضب لتنهرنا بسبب صوتنا العالي الذي كاد يوقظ الجيران، وتدعونا للنوم على الفور متوعدةً بالعقاب. على كلّ حال، رغم أن صوتي كان الأكثر خشونة، كانت أمي تستثنيني من لقب الـ "بغل" الذي كانت تصف به أخوتي الستة في فورة غضبها؛ ربّما كان صغري يشفع لي، إذ كنت الأصغر بين أخوتي. كنتُ أخجل من رفع صوتي أكثر. كان أخي عادل يهاجمني ونحن في الجملة الأولى من الأغنية. كان يرميني بالوسادة طالبًا منّي أن أرفع صوتي وأنا أغنّي وألا أموءَ كالقطط. لكن يا لحظي! كانت أصوات سائر المغنين المشهورين رفيعّة جهيرة، وإذا كنتَ تريد أن ترفع صوتكَ كان عليك أن تكون جهوريًا وتملك أوتارًا صوتيةً قوية. أحيانًا، حين كان أخي عبد الصمد يطلق العنان لصوته مغنيًا، كان صوته يملأ المحيط فتهتزّ معه الأبواب والنوافذ، حتى المستمع كان يظنُّ أنَّ هناكَ جرسًا يُقرَعُ في حنجرته. كنت معجبًا بصوته وأتمنّى أن أغدو مثله، لذلك كنت أتسلل في الصباح الباكر إلى قنّ الدجاج لأسرق بيضة وأشربها وهي نيئة كي يقوى صوتي حين أرفعه. وحتى ذلك اليوم الذي لاحظتْ فيه أمّي فعلتي تلك، كنتُ قد التهمتُ عددًا كبيرًا من البيض النيء لكن دون أن يقوى صوتي

مثقال ذرةٍ حتى. في المحصّلة، أدركت مهزومًا أنّي مهما فعلت وحاولت وعملت، لن أستيقظ ذات صباح لأرى أن حلمي قد تحقق وأنّ صوتي قد أصبح أقوى وأعذب من صوت الجميع".

قالت الفتاة: "أمّا أنا، ما استهواني الغناء قط".

فقال الشاب في خفّة: "ذلك أنّنا خير من مثل البلابل".

استمرت الفتاة في كلامها وكأنه حدّث نفسه ولم تسمع ما قاله. قالت: "حينها، كانت إحدى عمّاتي تقيم في إسطنبول، ولم تكن قد أنجبت أي أطفال. ذات مرة، عند زيارتها لمنزلنا في بيكا(13)، طلبت من أمي أن تصطحبني معها في الصيف إلى منزلها في إسطنبول وتقوم بتسجيلي هناك في مدرسة لتعليم رقصة الباليه. ألم أُرِكَ صوري من تلك الفترة؟".

"لا!".

"آه لو رأيتني حينها، كنت نحيفةً وهزيلةً بشكلٍ لا يُصدَّق. قدماي كانتا أشبه بغصنين رقيقين. كانت عمّتي تلك تحبّني حبًّا جمًّا. قالت لي إمّي إنّها كانت محطّ إعجاب كل الشباب حين كانت تقيم في بيكا؛ سقط الجميع في شِرك هواها. حتى حين تقدّمت في العمر، كان الجميع ينظر إليها بهيام كلّما زارت بيكا. ليتك رأيتها، كانت ترتدي أزياء عصرية ولكن بطرازٍ خاصٍ بها، وتتصرف بحُسنٍ ولباقةٍ ولطافةٍ مُدهشة. قبل أن يحلّ علينا الصيف جاءنا خبرُ موتها؛ قيل إنها شنقت نفسها. قد يكون هذا قدر الجمال والبهاء".

قال الشاب والندم يضيّق على قلبه: "وها نحن اليوم بعضنا مع بعض".

أكملت الفتاة حديثها على النحو السابق:

"حرص والداي حينها على عدم فتح هذا الموضوع أمامي مطلقًا. مرةً واحدة فقط شعرت أنَّ الشك يساورهما حيال القصة التي تقول إنها قد خنقت نفسها، وإنهما يعتقدان أن هناك من عمد إلى قتلها. لكن على أي حال، بعد مضي فترة من الزمن لم يعد أحد من العائلة يتحدّث عن هذا الموضوع، لكن طيفها كان يزورنا باستمرار ويتجوّل في أزقة وشوارع بيكا أكثر مما كانت تفعل وهي على قيد الحياة. كادت طفولتي كلّها تمضي أمام عينيّ وأنا أحاول فكّ طلاسم موتها: من هم أولئك الجناة، وما الذي فعلوه بها، ولمَ فعلوا فعلتهم تلك. ذات يوم، خلال دراستي الثانوية، حين كنت أهمُّ بمغادرة منزل جدّي والعودة إلى درانا، سمعت صوت جدّتي من الخلف وهي تحدّث جدّي: "إنها تشبه عمّتها سراب كثيرًا". كانت طريقتي في الكلام تشبه طريقتها، وكنت أرتدي ثيابًا كثيابها، وأتصرف مثلها".

غرقت الفتاة في الحزن، وانطفأ الوهج في عينيها. شربت بعض الماء وصمتت قليلاً.

"ما أجمل ذلك".

قالت الفتاة وهي تغمض عينيها اللتين دمعتا من طَرفِ رموشها بابتسامةٍ لطيفة: "لم أعد أرغب بالنظر إلى وجهي في المرآة".

جاراها الشاب بابتسامة، وأعاد كأس العرق الذي كان قد لامَسَ شفتيه دون أن يرتشف منها: "وأنا لم أعد أرغب في الذهاب إلى الحمّام".

"على أي حال..." قالت وسكتت للحظة. "لم أُعجَب بك يومها؟ بالنسبة

لي، كان اللقاء الثاني هو يومنا الأول".

12

"ذلك اليوم في المسرح".

قالت الفتاة بوجهٍ مرحٍ غطته سحابة حزنٍ رويدًا رويدًا.

"بالنسبة لي، كانت البداية في ذلك اليوم. تَذكُرهُ أليس كذلك؟".

صمتَ قليلاً. جرفهُ التردد وخيَّم على وجهه وسحنته، لكنه هزَّ رأسه في النهاية وقال:

"السابع عشر من نوفمبر. قبل عامين من الآن".

ارتعشت يد الفتاة التي كانت قد أسندتها على الطاولة، فسحبتها ووضعتها في كفّ يدها الأخرى المبسوطة في حضنها وشدّت عليها. حاولت وجاهدت، إلا أنها لم تتمكّن من النظر في عينيه.

قالت بصوتٍ خافتٍ وهي تعضُّ على شفّتها السفلى: "أحيانًا، حتى أجمل الخطط تغدو ضحيّة أسوأ الحظوظ".

حدث ذلك في إحدى أمسيات الشتاء. كانت السماء تمطر بشدة والريح تهبُّ من كلِّ صوب. حين حاول شدَّ أزرار معطفه بيدٍ واحدة، كان المطرُ الممزوج بالثلج يصارعه بقوةٍ محاولًا انتزاع المظلّة من يده. سيكون كل شيء على ما يرام إن ينزل من مُنحدر الشارع باتجاه الطريق الذي يجاور البحر. أصعب ما في الأمر هو هذا المنحدر، وكأن رياح وعواصف إسطنبول كلّها قد اجتمعت فيه. لم يكد يخرج من أسفل تراس المنزل الذي كان يحتمي به حتى جاءه صوتٌ من سيارة "ميني كوبر/Mini Cooper" سوداء كانت تستعد للعودة إلى الخلف لتركن قرب المنزل.

كان يحاول أن يخبره بشيءٍ ما، لكن المطر الغزيز كان يحول دون سماع الصوت. كانت السيارة ذاتها قد مرّت قبل قليل بالمكان نفسه وصعدت المنحدر. على طول ذلك الشارع الضيّق الذي كان يعجُّ بالسيارات المصطفة بعضها بجانب بعض، لم يجد سائق تلك السيارة مكانًا مناسبًا يركنها فيه. يسأل إن كان بإمكانه أن يركن سيارته لساعة أو ساعتين في ذلك المكان الفارغ الوحيد أمام ذلك المبنى. حين اقترب مع مظلّته من السيارة وانحنى قرب إحدى نوافذها نصف المفتوحة، عرف على الفور أنها هي. في الحال أمسكَ بمقبض الدلو المليء بالإسمنت، وحرّكه من المكان الذي كان جاره البائع يضعه فيه كل ليلة حتى يمنع الآخرين من شغل المكان الذي يركن فيه سيارته، ومن ثم بدء بتوجيهها عبر إيماءات وإشارات بيديه وبصوتٍ عالٍ، حتى تمكّنت من الاقتراب من الرصيف لتركن سيارتها الصغيرة بشكل جيد من الطرفين كعلبة كبريت بين سيارتين أخريين. ما إن ترجّلت من السيارة حتى اتجهت مباشرةً صوب الشاب واحتمت بمظلته من قطرات المطر وهي تشكره موضحةً أن بقاءها لن يطول كثيرًا. قالت له إنها كانت تبحث أسفل الطريق عن مكان لتركن فيه سيارتها حتى لا تتأخر على العرض المسرحي الذي سيبدأ بعد خمس عشرة دقيقة في مسرح "تَكَل/Tekel"، وإن العرض لن يستمرّ أكثر من ساعتين على أبعد تقدير. يا لها من مصادفة، كان الشاب نفسه في طريقه إلى صالة المسرح لحضور العرض! لذلك حمل لها المظلّة ليقيها من زخّات المطر حتى صالة مسرح "تَكَل" على الجادة الواقعة أسفل منزله. صار يسأل نفسه إن كانت الفتاة قد عرفته أم لا، وفي حال عدم تعرفّها عليه، فما هي الطريقة المثلى لكي يذكّرها بنفسه؟ حين كانا يسيران على رصيف الطريق الموازي للبحر، كان الممشى ضيقًا جدًا،

وكان عليهما الالتصاق بعضهما ببعض حتى يسعهما الرصيف وتسترهما المظلّة. قال في نفسه كم من الوقت قد مضى مذ كان قريبًا من إحداهن. لكن، هل هو قريبٌ الآن؟ كان الحياء والتحيّزُ قد حاصراه حتى إنه كان يتنفّس بصعوبة. نعم، كان قريبًا منها، وكان ذلك يمنحه شعورًا رائعًا. كانت الرائحة التي تفوح منها تشبه خيالاته في ذلك اليوم الأول؛ تلك الخيالات التي كانت تطبق على صدره. وهما يمشيان، اعترض عمودٌ طريقهما وضاق الرصيف أكثر فأكثر حتى لم يعد باستطاعتهما السير جنبًا إلى جنب فتخلّف عنها ممسكًا بالمظلّة، ولوهلة وقعت عيناه على ظهرها وخصرها وردفيها اللذين بدوا وكأنهما يتمايلان منذ أمد طويل. تملّكته الرغبة في أن يتحدّث عن ذلك اليوم لأنيسة أحلامه وخيالاته. بدت أنحف وأطول من ذي قبل وهي ترتدي صِدَارًا أسود فوق بنطالٍ رمادي. وكانت قد صبغت شعرها بصبغةٍ سوداء قاتمة، وجمعته على شكل تسريحة ذيل الحصان. وحين شارفت تلك الرفقة القصيرة على الانتهاء، ومَضت بسرعةٍ حاملةً معها الكثير من الحيرة والبلل الشديد، كان السؤال الوحيد الذي استطاع طرحه عليها قبل أن يدلفا بسرعةٍ نحو الداخل: "ما هو رقم مقعدك؟".

فأجابت الفتاة: "في الصفوف الخلفيّة... في الحقيقة كنت قد خططت لحضور مسرحية في صالة "كوجوك/Küçük"، لكن لسوء الحظ نفدت البطاقات، وفي اليوم الأخير تمكّنتُ من الحصول على تلك البطاقة هنا".

كان مقعدهما متباعدين جدًا، ذلك أن مقعده كان في الصفوف الأمامية. ما إن أطفئت أضواء الصالة حتى أغلق عينيه، وفكّر في آلام المعدة التي تنتظر هذه الليلة أيضًا. فتح عينيه على صوت الجلبة

القادمة من خشبة المسرح. انعكس ضوءٌ أحمر على الخشبة. وفجأة استنشق تلك الرائحة، والتفت: رآها بجانبه. أشرق خداها النضران بابتسامة مبهجة على الضوء المنبعث من شاشة هاتفها.

أغلقت هاتفها بسرعة ووضعته في حقيبتها وقالت: "على المرء أن يشغل دومًا كلَّ مكانٍ فارغ".

قال الشاب بسعادة: "هكذا تحوّلَ الجحيم في ذلك اليوم إلى جنّةٍ بالنسبة لي".

قالت الفتاة: "لكن المسرحية لم تعجبني قط، وكنتَ خلال الاستراحة تشرح لي بغباء أن المسرحية ناجحة جدًا".

قال الشاب والمسرّة تملأ روحه: "وما كان عساي أن أفعل! كنتِ تبغين المغادرة والمسرحية لم يمضِ منها إلا بضعة مشاهد. شعرتُ بالقلق وكنتُ مستعدًا للحديث عن ألف قصةٍ وقصة حتى تبقي معي، وأشكر الله أن الحديث توقف عند كافكا".

قالت وهي تتكئ بمرفقها على طاولة البوفيه في صالة المسرح: "كاتبي المفضّل".

حدّقت لوهلةٍ في داخل كوب قهوتها الورقي. مكثا هناك وتحدّثا مطوّلًا عن كافكا حتى تنتهي الاستراحة ويعود جميع الحاضرين إلى مقاعدهم. اعتقدَ أنه أنساها فكرة المغادرة بفضل حديثهما ذاك.

قال وهو يتأرجح على كرسيّه قليلًا: "لكنّكِ كنتِ مخطئةً بشأن وفاته".

كانت الفتاة قد تحمّست حين سمعت اسم كافكا. تحدثت عن مدى

تأثرها به وقربها من هذا الكاتب، الذي قالت إنه اكتشف مرارة الحياة ومآسيها وعبثيتها وانتحر على إثرها، بل وأوصى أن تُفنى كتاباته معه. تملّكته السعادة لأنهما عثرا أخيرًا على موضوع مشترك، كان على درايةٍ جيدة بتفاصيله، لذلك لم يعطِ أهميةً كبيرةً لكلماتها البعيدة عن جوهر وروح قصص كافكا التي كان يهيم بها. أدرك منذ اللحظة الأولى أن معلوماتها ليست مستقاة من قصصٍ وروايات كافكا، بل من إحدى كتبه التي تتحدّث عن الأمثال والحِكم ومن شذرات وملاحظات مبعثرة من سيرته الذاتية. لا يهم، فلتخلط الحابل بالنابل. كانا قد أمسكا رأس خيطٍ مشترك، وكان هذا يكفي برأيه. لكن بعد مرور أربعة أسابيع أدركَ أن ما كان لم يكن كافيًا، ذلك أنه ينبغي على المرء أن يقول كلَّ ما في جعبته بشكلٍ صحيح. حين استغرقت الفتاة ساعةً كاملةً لتجهّز نفسها للذهاب إلى المسرح، وهذه المرة دار الحديث عن تشيخوف، فاستشاط غضبًا وتلاسنا. حينها، لم يتمالك نفسه وقال لها إنها مختالة، وإنها تدّعي معرفة كل شيء بتصلّف دون أن يكون لديها أدنى قدر من المعلومات عن أي شيء، وإنه أحسّ بجهلها منذ اليوم الأول في ذلك المسرح حين بدأت بالحديث عن كافكا بشكل مغلوط. لم يكن هذا أول صدام بينهما، لكنه كان أول انقطاع.

قالت: "يومها، حين هممنا بالخروج من الجحيم، وقعت في شِراك حبّك. لكن، حتى أكون صادقةً معك، خلال الشهر الأول كنت أسأل نفسي باستمرار عمّا أفعله. كانت أليف تمنحني القوة وتدعمني، ولولاها لما حصل ما حصل، فقد كنتُ متذبذبة وهشّة".

تمتم الشاب: "لكن بالنسبة لي، لم تبدي كذلك قط حين كنّا معًا. كنتُ

أعتقد...".

استغرقتْ وهلة في التفكير وقالت في النهاية: "كانت مشاعري مضطربة. حدث كلُّ شيءٍ على نحوٍ مفاجئ بالنسبة لي، لم أرَ نفسي إلا وقد وقعت. كان شيئًا مختلفًا، أظنّك تدرك ذلك، أليس كذلك؟ كان الأمر مختلفًا حقًا. شعرتُ بأن كلَّ شيءٍ بدا لي غريبًا. فجأةً، كان هناك عالمٌ آخر. لا أدري. بعدها، أصابني الخوف والجزع وأنا أرى قسوةً وشراسةً مستترتين خلف النعومة والرفق اللذين كنتَ تُبديهما ظاهريًا. لكن، على أيّ حال، لم أكن أرغب في الصدام وإحراق قارب العودة، ولذلك منحتكَ فرصةً أخرى".

لم ينبس ببنت شفة. أطبق الصمت وساد السكون بينهما. نظرَ إلى الأرض يتأمّلها. كان يعتقد أن ذلك الخطّ الغامض يمرُّ من مكان ما هناك، عبر ذلك البلاط والبياض الخام عديم الشكل، وربما في ذهنه، ربما بينهما، أو في مكانٍ آخر. ولكن، أينما عَبَرَ وكان، كانت أشعة الماضي تطوله.

بعد الجحيم توقف المطر. طلبت منه أن يتمشّيا قليلًا بجانب البحر. سارا حتى "كوزغونجوك(14)"، وهناك شرب كأسًا من الشاي بينما شربت هي فنجان قهوة. حين غادرا المكانَ ووصلا قرب المنزل، كان الليل قد انتصف. عندما استقلّت سيارتها ووجهت مقدمة السيارة لإخراجها من الموقف الضيق وهمّت بالمغادرة، أطلقت بوق السيارة وأنزلت زجاج النافذة. هذه المرة نادته باسمه: "أتدري!". أخرجت رأسها من نافذة السيارة وصاحت: "عرفتك منذ الوهلة الأولى؛ كنت أدري أنه أنت".

قالت بنبرةٍ مبهجةٍ ملطّفة وهي تلهو بالمنديل الورقي الذي كانت قد صنعت منه شكلًا على هيئة حيوان: "في اليوم الذي تلا ليلة المسرح هاتفتكَ بمجرد الانتهاء من عملي... هل كنتَ ستبادر إلى الاتصال بي إن لم أفعل؟ أخبرني الحقيقة!".

أجاب الشاب بهدوء: "نعم، كنتُ سأفعل".

"أيها الكاذذب. كنت أنتظرُ اتصالك بالفعل، لكنّك لم تفعل. لذلك سارعتُ أنا إلى مهاتفتك. عادةً ما يبادر الشاب بالاتصال، لكن في حالتنا أنا مَن اتصل كما رأيت!".

وتابعتْ بعطفٍ وهي ترمي المنديل الورقي على الطاولة: "ما الذي كنتَ تفعله؟ كنتَ في المنزل أليس كذلك؟ كنت وسط تلك الديدان".

عبسَت وقطّبت حاجبيها باشمئزاز وهي تتذكّر تلك الديدان الثابتة الملتصقة بسقف الغرفة حين زارتْ منزله في اليوم التالي واستلقت على فراشه. ليلتها، حاول اختلاق قصة "كافكاوية" من ذلك، لكنّها سرعان ما أشاحت بوجهها عنه وغادرت الفراش لتحضر المكنسة الكهربائية. أخرجت رأس الأنبوب، اعتلت الفراش، قرّبت الأنبوب من السقف وبدأت بشفط الديدان واحدّة تلو الأخرى.

بعد أن أنهت المهمة، استلقت على الفراش وقالت له: "أخرج كيس الغبار غدًا وارمه".

يومها، أُعجِبَ بتدبرها وتدبيرها.

قال موضّحًا: "لم أكن في المنزل".

صمتت لبرهة ومن ثم قالت: "كيف ذلك؟ قلت لي إنّك كنت في المنزل!".

"كنتُ في بَشيكتاش(15)".

جافاه النوم ليلتها وكابد حتى غفا. واستيقظ في الصباح الباكر ليغادر المنزل مسرعًا ويستقلّ المركب لينقله إلى الجانب الآخر. كانت الفتاة تقيم في الجانب الآخر وتعمل هناك أيضًا. لم يكن نوّاف مخطئًا حين قال إن الجانب الآخر يضمُّ كلّ شيء وإن جانبهم يفتقر إلى كلّ شيء. ورغم أنه لم يعترف لها من قبل قط، فإنه كلما تخاصما، حين كان الشوق إليها يعتصر قلبه، كان يهرول مسرعًا نحو الجانب الآخر من المدينة ويتجوّل فيه. كان ذلك يزرع الراحة في قلبه ويُشعِرهُ بالقرب منها. يومها، ورغم أنهما تبادلا أرقام هاتفيهما في الليلة الفائتة، تناول الهاتف مئات المرّات وأعاده إلى مكانه. كان يتوق إلى الاتصال بها دون أن يقوى على الضغط على أرقام الهاتف. حلّ الظلام وهو يتجوّل في أرجاء بَشيكتاش. كان يغادر مقهىً ليجلس في آخر. وأخيرًا، ما إن رنّ هاتفه حتى وثبَ من مكانه وهرعَ نحو الهاتف. لاحقًا، كان سيذكر مرارًا وتكرارًا إنّ تلك اللحظة كانت أسعد لحظات حياته، وسيقول في قرارة نفسه: "كنتُ أعلم أنها ستتصل بي".

وضع إحدى يديه على الطاولة ونقرها بأصابعه والأسى يعتصره ويمنع عنه المضي في درب بهجة ونشوة ذلك اليوم. جفّ فمه وتيبّست شفتاه. انعقد لسانه وأحسّ بألمٍ في حلقه. شعرَ أنّ هناك دومًا نقطة أبعد وأكثر قتامةً مما يمكن تخيّله. ارتطمت به أمواج العزلة والخيبة وهو يفكّر أنه

لن يبلغ تلك النقطة ولن يراها أبدًا. تحرّكت شفتاه بصعوبة وقال: "هل أنتِ نادمة على منحي تلك الفرصة؟".

13

قالت الفتاة: "في الواقع، لمرّة أو اثنتين قلتُ لنفسي بشكلٍ جدّي: يا ليتني... كان اليأس قد تملّكني، فما عساي أفعل؟ كان الزمن يمضي وكنتُ أتقدّم في العمر، ولم يكن في وسعي أن أنظر إلى الأمر -كما كنتُ أفعل سابقًا- كمغامرةٍ في سنّ المراهقة. لم أكن قد وقعتُ في حبّ أحدهم بهذه السرعة، ولم أكن أريدُ لهذه القصة أن تنتهي على عَجَل. حقيقةً، أنتَ أيضًا لم تكن تدعمني بالشكل المطلوب. كنتَ متكبّرًا وتنفخُ نفسكَ كطاووس. لكن على كلٍّ حال، في مكانٍ ما، كنتُ أملكُ شعورًا أو طاقةً، أيًّا كان ما تسمّيه، تخبرني أنّ كلّ شيءٍ سيسير على ما يرام، وهو ما حصل في بعض الجوانب...".

توقّفت هنيهة. بدت وكأنها كانت تُمطرُ من بعيد. حدّقت في يديها الذاويتين؛ كان طلاء الأظافر قد زال.

قال الشاب بهدوء: "وحين كانت الأمور لا تسير على ما يرام، كنتِ تريدين أن ينتهي كلُّ شيء من الجذور... كنتِ تفيضين غضبًا".

ردّت الفتاة: "لستَ امرأةً، ولذلك لا تدركُ ما أقوله".

نظرَ الشاب إلى عينيها وقال: "بالنسبة لي، وجودي معكِ والتعرّفُ عليكِ هما أعظم فرصتين حصلت عليهما، هل تعين ذلك؟".

حينها، أدركت أنّ الشاب الذي يجلس قبالتها قد أدركته الشيخوخة، وفكّرت -لحظتها- فيما يعنيه التقدّم في السن.

مدّت يدها بهدوء، أمسكت يده وقالت: "هلّا حدّثتني عن السيناريو! أيّ

دورٍ نلعبُ فيه، وكيف نلتقي؟".

كيف ذلك؟ يومٌ عاصفٌ آخر؛ رِيحٌ صَرصَرٌ، ومظلّته الواسعة ذات المِقبض الطويل تكادُ تطير من يده. تَتهَزَّمُ الغيوم فجأةً، وتصبُّ مطرًا غزيرًا. يضع الشاب ذو المعطف الأسود قبّعته على رأسه ويتجه نحو الطاولة التي تحمل ملصقًا دعائيًا عن إحدى المسرحيّات، يسحبها من أسفل المظلّة ليقيها من المطر ويسندها إلى أحد جدران المبنى. يضعُ يده في جيب معطفه. ما تزال هناك عشرون تذكرة غير مباعة. يفكّر فيها وهو يراقب الناس الذين يندفعون في كلِّ الاتجاهات ليقوا أنفسهم من المطر الغزير. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى فَرُغَ ذاك الشارع الواسع. منذ ثلاث ساعات لم يبع تذكرة واحدة. كان نوّاف قد حصلَ على عشر تذاكر حتى يبيعها لأصدقائِه ومعارِفه، وكان هو أيضًا قد وضعَ طاولةً في هذا الشارع المكتظ بالقرب من مبنى "يَدينجي كات/Yedinci Kat" الذي كان سيحتضن مسرحيتهما. لقد عمل، ليلًا نهارًا، على مدى أسبوعٍ كاملٍ لكتابة نصّ هذه المسرحية الفرديّة التي تدرّب نواف طوال ثلاثة أشهر لأدائها. ستة أيامٍ تفصله عن عرض هذه المسرحية التي ألهمته قصص جدّته في كتابة نصّها وأطلق عليها اسم "ديكي قوقو/Dîkê Qoqo(16)". لكن، للأسف، لم يتمكّن حتى الآن من جذب مُشاهِد واحد لمسرحيته الكردية، بل ها هو يعتقدُ أن المطر أيضًا يتساقط عليه باللغة التركية. فجأةً تقبل عليه امرأةٌ شابة ترتدي معطفًا رماديًا طويلًا ينسدلُ حتى ركبتيها، وقفازين في يديها وتمسكُ بطرف قبعتها. تندفع الشابة من تحت المطر الغزير نحو مظلّته. المطرُ ينهمر وينسكبُ بقوة، وهو يقولُ في سرّه فلينسكب المطر، فليهطل دون توقف. تتذمّرُ الفتاة

متحدّثةً بالتركية: "يبدو أن هذا المطر لن يتوقف البتة!" ترفع رأسها فتقع عيناها على الملصق المثبّت على الطاولة.

تسأل الشاب: "أهذا أنت؟".

"لا! إنه صديقي. أنا من كَتَبَ النص، لكنّ صديقي هو من سيؤدي الدور".

تسألُ وهي تلفظ الاسم الكردي بلفظٍ تركي: "ديكه كوكو/Dike Koko! ما الذي يعنيه ذلك؟".

يصمتُ الشاب قليلًا، ويفكّر.

ترفع الفتاة قبّعتها قليلًا، ودون أن تنتظر إجابته، توجّه إليه سؤالًا آخر: "أيُّ لغةٍ هذه؟".

تلهو الريحُ بالجزء السفلي من معطفها المشدود إلى خصرها بزُنّارٍ جلدي.

يجيبها: "إنها الكرديّة". يلفظ هذه الجملة ويخبو صوته وسط جلجلة المطر. تضع الشابة يديها في جيبيها، ودون أن تنطق ببنت شفة، تتأمّل حجارة الشارع الخاوي والمطر ينسكبُ عليها كجدارٍ مائيٍّ، ينحدرُ من المساء بقوة ويُصدِرُ صوتًا مهيبًا كهزيم الرعد وهو يرتطم بها.

بعدها يغرقان في محادثةٍ مطوّلةٍ عن المسرحية، ويتبادلان أطراف الحديث إلى لحظة هدوء السماء. وما إن يتوقف المطر، تشتري الشابة تذكرة وتمضي في سبيلها. أما الشاب فيعتريه الذهول، لكن على كلّ حال، تحضرُ الشابة في يوم عرض المسرحية. الشابُ جالسٌ في الصف

الأخير من قاعة المسرح الصغيرة. لم يتم إشعال الضوء على خشبة المسرح بعد، والقاعة مظلمة تمامًا. فجأة يتمُّ سحب ستارة مدخل القاعة جانبًا، فينفذ ضوءٌ من الخارج نحو القاعة. تدخل الفتاة بهدوءٍ وهي تحمل معطفها على يدها وتضعُ حقيبتها على كتفها. تتقدّم لتجلسَ في زاوية الصف المقابل له تمامًا. الآن، ورغم أنهم باعوا ثماني عشرة بطاقة، يبلغُ عدد الحاضرين اثني عشر شخصًا فقط. العدد جيدٌ على أيّ حال.

كان نوّاف يقف على خشبة المسرح ليختتم المسرحية بالكلمات التي أمضى أسبوعًا في تأليفها، أما هو فكانت نظراته تدور حول الفتاة فحسب. هل تفهم ما يُقال؟ وإلى أيّ درجةٍ تفهم حديثهم بالكرديّة؟ ولكن إن لم تكن تفهم، لماذا جاءَت؟ يساوره الفضول: إن كانت تفهم ما يدور حولها، فإلى أيّ حدٍّ أحبّت المسرحية؟ يحدّقُ بها في الظلام؛ يراقبها ويتتبّع حركاتها. وما إن تنتهي المسرحية وتُشعل الأضواء، تعتريه رغبة في التحدّث إليها، لكنّ بعض أصدقائِه ونواف يقبلون عليه ويبادرون بالتكلّم معه. بعد أن تفرغ القاعة، يتجه إلى الكواليس حيث كان نواف. كان نواف قد جلسَ على كرسيٍّ ووضعَ إحدى ساقيه على الأخرى بشكلٍ متقاطع، يسندُ رأسه على كفِّ إحدى يديه ويجلس أمام الطاولة في مزاجٍ مضطربٍ عَكِر. ودون أن يقوى على التحدُّثِ إليه، يملأ كأسين بلاستيكيين بشراب الفاكهة مسبق التحضير. فجأةً، تقبل عليهما الفتاة وتدخل الغرفة. تجول بنظرها في أرجاء الغرفة كمن نسيَ شيئًا ما، ثمّ تنظر إليهما وكأنّها فطنت في تلك اللحظة إلى وجودهما في الغرفة، وتتوجّه إليهما متحدّثةً بالتركية:

"أين ذهبت الشخصية الأنثوية في القصة؟".

إنها "بَرجَم"، فتاةٌ نصف كرديّة. في الحقيقة، هكذا تقدّم نفسها في العادة، وكرديّتها تتحدّرُ من جدّتها. ولكن مهلًا؛ أيُّ جدّةٍ منهما؟ إنها والدة أبيها. إذاً والدها كردي، فلم لا تقول إنها تتحدّرُ بكرديّتها من أبيها ويُقضى الأمر؟! ذلك أنه لم يسبق أن تكلّمَ والدها معها بالكرديّة، ودائمًا كان يتحدّث عن الكُرد بضمير الغائب "هُم"، وعن الترك بضمير المتكلّم "نحنُ". أما أمّها التي تتحدّرُ من مدينة إزمير، فهي امرأةٌ مزهوةٌ بانتمائها التركي إلى أبعد حد. كانت هذه المرأة الجميلة الرقيقة قد تعرّفت على القاضي الشاب، الذي سيغدو فيما بعد والد بَرجَم، حين كانت تعمل في سِلك التدريس بأحد الأقضية. ورغم الاعتراضات التي أبدتها عائلتها ورفضها لهذا الارتباط، تزوّجت بِه بعد عام. وبعد عدّة سنوات من الزواج، أحبّت عائلتها هذا القاضي الشاب الذي بدا تركيًّا ومحبًّا للدولة التركية أكثر منهم حتى، ولذلك مدّت له العائلة يدَ المساعدة لينقلَ وظيفته إلى إسطنبول، ولم تبدِ العائلة اعتراضًا على تركِ ابنتها لمِهنة التدريس وعودتها إلى شغفها الأوّل؛ التمثيل المسرحي. بعد أن كَبُرت ابنتهما البِكر، بَرجَم، بدأ والدها أحيانًا في اصطحابها معه في الإجازاتَ إلى منزل والدته في منبته بإحدى قرى مدينة بدليس الكرديّة. وما إن بدأت الطفلة بالاستفسار من أمّها عن تلك اللغة "الغريبة" التي يتحدّثُ بها والدها مع جدّتها في بدليس حتى قالت والدتها -بشكلٍ قاطعٍ- لوالدها إن الفتاة لن تزور ذلك "المكان" في الصيف المقبل وستزور جدّتها التركية في إزمير. في الصيف الذي تلا موسم زيارتها لجدّتها التركية في إزمير، عادت الفتاة لزيارة منزل جدّتها في بدليس، وانتهى بها الأمر بالتحدّث بشكلٍ لا شعوري بلغة جدّتها البدليسية. في طريق العودة، طلبَ منها والدها الذي كان يتحدّث معها بالتركية "هناك" أيضًا، أن تكون حذرةً ولا تتحدّث

الكردية أمام والدتها، وجاءَ ردُّ الفتاة بتلك اللغة التي سمعت باسمها لأوّل مرةٍ في حياتها: "Ser çavan(17)".

في المرة الأخيرة التي زارت فيها قرية جدّتها في بدليس، رافقتهما والدتها أيضًا. كانت حينها في الصف الثاني من المرحلة الثانوية. ساروا معًا باتجاه المقبرة أسفل القرية، وجلسوا حول تربةٍ محفورةٍ حديثًا وعليها حجرٌ أسود في الأعلى. منذ ذلك اليوم، لم تحدّث أحدًا بالكردية. وإن حدَثَ وكلّمها أحدهم بالكردية بضع كلمات، كانت تجيب بالتركية. اليوم، وفي هذا المكان الضيّق المنخفض، تتوق للتحدّث بالكردية مرةً أخرى، حيث لا تعرف بعد على وجه اليقين إن كان ولعها بالمسرح أم فضول الاستماع إلى تلك اللغة القديمة "العجيبة" قد دفعها إلى القدوم ومشاهدة نسخةٍ غريبة من القصص التي كانت تسمعها من جدّتها البدليسية. هفا قلبها إلى التكلُّمِ بالكردية، لكن حين أدركت أن قاموس هذه اللغة يبدو غريبًا جدًا بالنسبة لها، استحت من قول أي شيء، ولكي تواري خجلها أمام هذين الشخصين الذين تحوّلا أمام عينيها إلى شخصيتين غريبتين تتحدّثان بتلك اللغة بقوةٍ وطلاقةٍ وبصورةٍ غير مفهومة، بادرت إلى التكلُّمِ بلغةٍ تركيّةٍ فصيحةٍ نقيّة، وتحدّثت بإيمانٍ وثقةٍ قوية عن هذه القصة التي سمعتها من جدّتها موضّحةً أنَّ إخراج شخصية المرأة من هذه القصة أصابها في مقتل وقلّل من قوة المسرحية. لا، لم يكن لديها ما تقوله عن أداء نواف المسرحي، فقد كان أداء الرجل جيدًا. كانت قد درست التمثيل، وهي الآن ممثلة، وكانت على درايةٍ جيدة بالتمثيل. جلس الثلاثة حول طاولةٍ مستديرة، وحلّق بهم الحماس وهم يتحدّثون عن المسرح والتمثيل، حتى إنهما أفرغا علبة

عصير الفاكهة معًا، فيما دخّنَ نواف نصف علبة السجائر.

تحدّثَ الشاب بغبطةٍ كنشوان ثمل: "حسنًا، وما عسانا نعمل! لم نسعَ إلى إخراج المرأة من العمل".

قاطعهُ نواف وأكمل فكرته وهو ينظر إلى الفتاة: "في الواقع لم نتمكّن من العثور على فتاة".

دُهِشت الفتاة وهي تنظر إليه تارةً وإلى نواف تارةً أخرى. واصل نواف حديثه وقال: "في الحقيقة لم نوفّق في العثور على فتاةٍ تتقن الكرديّة".

في الحقيقة، كان نواف قد حدّثه عن ذلك مراتٍ عديدة في المنزل أيضًا؛ كان يقول إنه لو عثر على فتاة تؤدي معه ذلك العمل المسرحي باللغة الكرديّة لربّما أقدم على الزواج بها أيضًا. لم يسبق لنواف أن شاركَ في عملٍ مسرحيٍّ أو تلفزيوني ضخم، لكنّه كان يحلمُ دومًا بمشاركة السرير مع إحدى الفتيات اللواتي يرغب في التعرُّف عليهن ضمن البروفات المسرحيّة.

كان قد سأله على الفور عما يعنيه بـ"مشاركة السرير"، وحينها شرحَ له نواف هذا التعبير الذي لم يكن قد سمعَ به، فقام بدورهِ باستعماله على لسان أحد شخصيات نصّه المسرحي. "فلتكن هذه منفِعتك علينا نحن معشر الكتّاب".

فبادره نواف بالقول: "لكن ما يحزُّ في نفسي هو أن الكتّاب لا ينفعوننا بشيءٍ يا صاح!".

ها هما ينظران بدهشةٍ إلى هذه الفتاة الجميلة التي تجالسهما، وكأنهما

وسط دعابةٍ غامضة لا يعرفان من رواها لهما. ولم يجرؤ أيٌّ منهما على السؤال عن مدى إتقانها لتلك اللغة التي اكتسبتها من جدّتها. بالطبع كانت تتقنها. لكن كان على أحدهما أن يستفسر منها عن ذلك. وإن ردّت بالإيجاب، وهو ما كانت ستفعله بالتأكيد، كانا سيصطدمان بمشكلةٍ أعوص، إذ كيف سيقترحان عليها تأدية دور الفتاة في مسرحيتهما. فجأةً وجدا نفسيهما عالقين في حَرَجٍ وعُسرٍ مع عددٍ لا يُحصى من عقبات وقواعد السلوك التي أفرزها شيءٌ يرغبون به بشدة كمجنونين مفتونين. كان المشاهد سيرى كيف يفتتن الرجال بالملاحة والبهاء والجمال.

فجأةً، ومن غير انتظار، قالت الفتاة مباشرةً: "يمكنني المشاركة إن أعدتما كتابتها".

14

يا له من خبر يا رجل! من كان يخمّن أن ذلك سيحصل؟ كانا مأخوذين مبهورين، لكن إشارات الاستفهام لم تكن تغادر ذهنيهما اللذين كانا يعجّان بالأسئلة. أخذه نواف جانبًا، انفرد بِه وقال: "كيف سندفع لها؟". لقد وقعا في مأزقٍ لا يُحسدان عليه. كان تأمين مقابلٍ ماديٍّ لفتاةٍ وَازِنةٍ حسناء كهذه أمرًا صعبًا عليهما، خاصّةً أن المسرحية فشلت في عرضها الأوّل. تهرَّبَا من مفاتحتها بالموضوع، ورمى كلٌّ منهما المهمّة على الآخر. بالنسبة له، لم يكن ليتخيّل نفسه مطلقًا وهو يتحدَّثُ في أمورٍ ماليةٍ مع أحد، فما بالك إن كان هذا الشخص هو هذه المرأة البهيّة التي بالكاد تنفكُّ عقد لسانه وهو يكلّمها. دعهما يتجادلان هناك حول هذا الأمر، ولنعد نحن إلى العقدة الأخرى في حبكة القصة/السيناريو.

على المشاهدين الأعزاء ألا ينسوا أن للفتاة أمًّا شمطاء وأبًا خنزيرًا، وعليهم -على وجه الخصوص- أن يتذكّروا والدتها دومًا؛ إنها ساحرة مشعوذة. كان هوسها بالفنون والنار التي تشتعل في داخلها طمعًا بالنجاح الدائم، قد دفعها إلى الضغط على ابنتها وهي طفلةٌ صغيرة؛ فأرسلتها إلى دروس الباليه، ودفعتها إلى تعلُّم البيانو في دروس مكثفة، ودرّبتها بنفسها على التمثيل المسرحي. لذلك، حين كبرت الفتاة الصغيرة المسكينة ودخلت الثانوية، بدأت في ترك كلّ ذلك، فانصرفت عن الباليه، ومع دخولها الجامعة كفَّت عن العزف على البيانو. لكن رغم كلّ ذلك، استمرَّت في فعل شيء وحيد: لم تتخلَّ عن التمثيل. عرَّفتها والدتها على أصدقائِها ومعارفها في الوسط المسرحي، واصطحبتها معها إلى مدارس التمثيل، وبفضل علاقاتها وصداقاتها، تمكّنت من إشراكها ضمن طاقم

ممثلي بعض المسرحيات والإعلانات التِلفزيونية. كانت الفتاة ناجحة حقًا، ولم تُحرِج والدتها في أيّ دورٍ تم تكليفها به، ولذلك لم تكن الأمّ تولي اهتمامًا لاستياء وامتعاض ابنتها منها. كانت هناك فرصة ذهبية تلوح في الأفق، وبمجرد أن تتحقق ويجري كلُّ شيءٍ على ما يرام، كان قلبها سيطمئنّ على ابنتها فتدعها وشأنها. الفرصة هي أن يافوز هارمان، وهو مخرجٌ شابٌ مجتهد وذكي، ونجل مدير أكاديمية التمثيل التي كانت الأمُّ قد لعبت أدوارًا مسرحيّة فيها من قبل، يتهيّأ للبدء بتصوير فيلم، وهو على وشك أن يعرض أحد أدوار الفيلم على ابنتها. أدركت الأمُّ كذلك أن المخرج الشاب يحبُّ بَرجَم، ورأت أن مشاركتها في هذا الفيلم قد تضع أسس عملٍ رائع وزواج ناجح. ولذلك، قام والداها بدعوة يافوز لتناول العشاء في منزلهم.

في تلك الفترة، كانت بَرجَم قد بدأت برؤية الشاب ونواف، وكانت تزور
Telegram:@mbooks90
منزلهما أيضًا، وتخضع لبروفات مكثّفة، بل وكانت تستعير منهما كتبًا كرديّةً وتأتي بها إلى المنزل لقراءتها وتمكين لغتها. يومًا ما، وبينما كانت تشرعُ بالخروج من المنزل، أخطرتها والدتها بالبقاء في المنزل لاستقبال يافوز الذي سيحضر على العشاء. ولأنها كانت تخشى والدتها بقدر تَبَرُّمها منها، قامت بمسايرتها حتى لا تتنبّه إلى عملها على المسرحية الكردية. وعليه، تمتنع ليلتها عن زيارة بيت الشاب، وتبقى في المنزل لتناول العشاء والاستماع بضجرٍ إلى والديها ويافوز وهم يتبادلون أطراف الحديث. تلعن والدتها في سِرها وهي تراها تجامل يافوز وتحادثه بتملّقٍ وتنمّقٍ محاولةً توجيه بوصلته نحوها. وحين تدور دفّة الحديث نحو الفيلم الذي يستعدُّ لإخراجه، يقول يافوز إنه يريد أن تلعب بَرجَم دور

البطولة في الفيلم، فتقولُ وقد ضاقَ بها الجلوس على الطاولة والإصغاء إلى دردشاتهم، إنها -للأسف- لن تستطيع لعبَ أيّ دورٍ في فيلمه، ومن ثمّ تنهض عن الطاولة وتتوجه إلى غرفتها وسط نظرات الحيرة التي ارتسمت على وَجهَي والديها ويافوز. في وقتٍ متأخر من الليل، تُقبل والدتها على غرفتها وتوبّخها على تصرّفها ذاك، وتبدي غضبها وانزعاجها منها على تركها تلك الفرصة العظيمة تذهب سدىً، بل وتدعوها إلى الاعتذار من يافوز وقبول عرضه. لكن رغم كلّ شيء، لا تبدي الفتاة أيّ ليونة وتبقى على رفضها، ولذلك فإن والدتها تضغط عليها علّها تعرف السبب. ورغم جميع محاولاتها، فإنها تفشلُ في استيعاب الأمر، وحين تهمُّ بالخروج من الغرفة وهي غاضبة، تقع عيناها على كتبٍ كرديةٍ على الطاولة.

بعد أن تفهمَ أمّها الموضوع برمّته، يعلو صراخها ويندلع شجارٌ عنيفٌ... تغضب الفتاة وتغادر المنزل لفترة وتقيم في منزل الشاب. أحبّا بعضهما البعض، هو يكتب وهي تمثّل، وكلاهما سعيد؛ ما الذي يمكنِ أن يتمنّاه المرء أكثر من ذلك؟

ولكن لا قصة تسير على ما يرام بهذا الشكل، فللقدر رأيٌ آخر وهو لا يفي قط بعهوده التي قطعها لعشاقه الأوفياء. يبدأ أصدقاؤها القدامى بإدارة ظهورهم لها، يستصغرونها ويسخرون منها لأنها سارت على درب قضيّة "باطلة" و"سيئة"؛ لم تعد تجدُ عملًا في مسارح الدولة أو مسارح البلدية أو المسارح الخاصة التي تقدّم أعمالًا باللغة التركية. بدأ الاستياء يتملّكها، إذ لم يعد بمقدورها التردد على المقاهي والمطاعم والحانات التي اعتادت على زيارتها من قبل، ولم يعد بإمكانها شراء

الملابس والأحذية والمستلزمات الأخرى التي كانت معتادةً على اقتنائها. باختصار، لم يعد باستطاعتها اتّباع أسلوب الحياة المرفّه الذي كانت تسير عليه من قبل. تخجلُ من التوجّه إلى والدتها لطلب المال، وبالرغم من أنّ والدها حاول عدّة مرات منحها بعض الأموال سرًّا دون أن تعلم والدتها بالأمر، فإنّها ترفّعت عن قبول المال من والدها بعد أن تحوّل الأمر برمّته إلى مسألة كرامة ومبدأ بالنسبة لها. ذات يوم، وبينما كانت تحتسي الشاي في إحدى مقاهي الكتاب بالمدينة، صادفت يافوز. أخبرها أنه على عِلمٍ بكلِّ ما جرى وأنه متأسفٌ على حالها، وعرض عليها المشاركة في عملٍ مسرحيٍّ جيد، تقيمه إحدى بلديات إسطنبول التي خصصت له ميزانية كبيرة جدًا، وأن العمل سيُعرضُ لفترة طويلة. إنها تدرك مشاعر يافوز ومقاربته للأمر، ولذلك، وبالرغم من رغبتها في المشاركة بهذا العمل، فإنها ترفض اقتراحه حتى لا يُعتبر قبولها تنازلًا وانهزامًا. لكن في الجانب الأخرى، عدم استساغتها لأعمالهما المسرحية الصغيرة التي لا تجذب سوى قلّةً من المشاهدين من جهة، وحاجتها إلى المال ومشكلاتها مع عائلتها من جهة أخرى شوّش ذهنها ودفعها إلى اليأس والانهيار، فباتت تجد صعوبة في إظهار ذاك الشوق الذي كان يغمرها وتلك الروح الحماسية التي كانت تفيض بها وهي تؤدّي أيّ عملٍ مسرحي. أحيانًا تتشاجر مع الشاب وتغضب منه وتخاصمه، فتعود إلى منزل العائلة، ولكن هيهات! فذلك المنزل لم يعد يسعها وبات بلا روح، فالأم تتذمّر باستمرار وتطعنها بكلماتٍ مؤذية، والأب متجهّمٌ عبوس. لذلك تغلق باب غرفتها على نفسها وتبقى فترات طويلة في الداخل دون أن تلقى أحدًا.

في نهاية السيناريو، نرى أن الشاب لم يغدُ كاتبًا جيدًا، بل أصبح أبًا جيدًا لفتاتين، ويعيش حياةً متواضعة وفقيرة في منزلٍ قديمٍ بائس؛ أما الفتاة فتنتحر بعد أن تؤدّي أدوارًا في بعض المسرحيّات ودورًا آخر في فيلم سينمائي يصنع لها شهرة جيدة.

15

قالت: "ما كان عليها أن تقتل نفسها. ينبغي أن تتزوّج هي وتنجب أطفالًا، وأن يكون المنتحر هو الشاب بدلًا منها. ذلك يبدو أكثر مأساوية".

فأجاب: "لكنّه لا يبدو أكثر واقعية!".

ابتسمت: "صدقني! والله لن أنتحر البتة! فلتفعل أنت!".

"ولم لا؟ سأفعل ذلك لأجلكِ..." قالها متبسّمًا.

قالت: "ها قد بدأت توغِلُ في الميلودراما ثانيةً. لكن أتدري؟ كان من الصعب عليّ أداء دور شخصيّةٍ كهذه، فمهما شعرتُ أنها قريبة منّي، ما زلت أشعر كذلك بنقاط الاختلاف بيني وبينها. أضِف أن التمثيل في حدّ ذاته مهمة صعبة جدًا بغضّ النظر عن شعور المرء حيال الشخصية، لكن...".

توقفت وجالت بنظرها فيما حولها. استقرت عيناها على الزوجين الجالسين على الطاولة المجاورة للنافذة. تفحّصتهما دون أن تدري ما الذي لفتَ انتباهها. نظرت إلى هاتفها بإحباط والتفتت إليه:

"أتراني جميلة؟".

كمن وقع في حقل فخاخ، شعرَ أنّه محاصَر. بدأ يتلعثم فاسترسلت الفتاة بكلماتها الواضحة المبينة:

"قل الحقيقة! كيف تراني الآن؟".

شعرَ أنّه لن يعتاد على هذه الشيخوخة، كان ذلك ما يزال يبدو غريبًا

بالنسبة له. ما يزال يحتفظ في ذاكرته بصورة تلك الفتاة الشابة التي دخل معها هذا المكان قبل وقت لم يعد متأكدًا من مدّته؛ أكان بضع دقائق، أم بضع ساعات، أم عدّة أيام، أم سنوات مضت؟ كانت صورة الفتاة التي جلست قبالته حينها ما تزال راسخةً في مخيّلته. أما هذه المعمّرة التي ربّما ما كان ليحبّها إن رآها في اللقاء الأوّل الذي جمعه مع الفتاة في ذلك اليوم؛ يراها الآن ويحبُّها كما فعل معها وهي شابة.

"أنتِ أجمل وأبهى من ذي قبل..." قالها وصمت. كان هذا ما يشعرُ به بالفعل، لكنّه كان يخشى أن تغدر هذه الكلمات بصدق أحاسيسه. كان عليه أن يبتكر ويستحدث كلماتٍ جديدة حتى تصدّقه الفتاة، لا أن يدفعها إلى النظر إليه ببرود ودون حماس. ولكن، لم يكن ذلك من السهولة بمكان.

قالت وهي تميل برأسها قليلًا: "تقول ذلك لأنك لا تحبُّ الذكريات". كان شعرها يغمرهما كظلٍّ أبيض. هذا التشبيه وحده كان كافياً لإدراك الروعة التي كانت تبحِر بِهما.

تابعت الفتاة: "لطالما سألتُ نفسي: كيف سأبدو حين أتقدّمُ في السن؟" أضاء نورٌ في عينيها. العينان... ما زالتا كما هما، كما كانتا، أليس كذلك؟

"لكنني ما زلت عاجزة عن استيعاب ما جرى، ما زلت أرفض تقبّل مسألة تقدّمي في العمر وشيخوختي هذه".

أمسكت منديلًا ورقيًا ووضعته أمام أنفها ومن ثمَّ أحنت رأسها نحو الأسفل. بقيت على هذا الحال دون أن يُسمَعَ صوت أنفاسها؛ وكأنها كانت

ميّتة.

رفعت رأسها وسألته بصوتٍ هادئ: "أيمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟".

كان وجهها قد وهنَ وذبُل، وظهرت هالات سوداء حول عينيها.

بهدوء، أومأ الشاب برأسه موافقًا.

صمتت الفتاة هنيهةً. انكمشَت بشرتها بلطفٍ نحو الوجنتين واستقامت شفتاها في خطٍ رفيعٍ طويل.

"هل سبقَ وخنتني؟".

لم يصدر أي صوتٍ من الشاب. ظنَّ أن الأغنية أيضًا قد توقفت وأنَّ العالم كلَّهُ قد غرقَ في صمتٍ مطبق. لوهلةٍ جال بعينيه على العرض الصامت المحيط به.

عادت الفتاة إلى سؤالها: "قل الحَقيقة وحسب، صدّقني لن أفعل شيئًا. وبالمحصلة لا يمكن إعادة أيّ شيءٍ إلى ما كان عليه من قبل. هل كنت مع تلك الفتاة؟".

"أيُّ فتاة؟".

"تلك التي تزوّجتها في نهاية السيناريو". تبسّمت... كانت ابتسامةً باهتةً صمّاء هامدة لا روح فيها.

بعد أن رأته يوغِل في صمتِه ولا يجيب، رفعت من لهجتها وتابعت حديثها باندفاعٍ أقوى:

"بالرغم من أنّك لم تتحدّث عنها ولم تأتِ على ذكرها، ولم تسمّها أيضًا،

لكن ما إن قلت ما قلته حتى عرفتُ أنها موجودة. انتهى بك الأمر إلى زجّها في خيالاتك أيضًا، وإيصالها إلى الدور النهائي في نصّك المسرحي. حتى حين أنكرتَ وجودها وتبرأتَ من علاقتك معها، كنت أعلمُ أنكما تعيشان علاقة غراميّة. لقد كذبتَ علي".

كان مذهولًا تمامًا، ولم تسعفه الكلمات لقول أيّ شيء. أكان مع تلك الفتاة فعلًا، أحقًا شاركها السرير؟ أخطر في ذهنه أنّ تلك الفتاة هي نفسها التي كانت تتزوّجه في نهاية السيناريو؟ كان قد بدأ بكتابة هذا السيناريو بتشجيعٍ ودفعٍ من نوّاف، وبدعمٍ ومساندة منها هي. تذكّر جيدًا أنّه أضاف هذه النهاية إلى السيناريو بهدف إثارة مشاعر الألم وإضفاء لمسةٍ من الحزن على النص؛ فكّرَ أنّ نهايةً كهذه ستفجّرُ مشاعر عميقة وقوية، ذلك أنّهُ كان يعتقدُ أنّ مشاعر الفرح والسعادة ليست إلّا مشاعر خفيفة وسطحيّة. كان إقحامه لثنائية "الفتاة" و"الانتحار" إلى المشهد الأخير نابعًا من هذا الدافع المحض. لم يخطر في باله قط أنه سيتعيّن عليه البحث عن أسباب رئيسية في حياته الحقيقية لكتابة هذين العنصرين في السيناريو، خاصةً أنّه لم يطل التفكير فيهما كما فعل مع العناصر الأخرى للنص.

قالها أخيرًا: "لم أخنكِ أبدًا".

فأجابته بعناد وغضب: "ذهبت إليها حين طردتك في تلك المرة".

"لم أذهب إليها قط".

لكنّه تعرّف على فتاةٍ أخرى؛ فتاة أخرى ستبقى علاقته بها سرًّا بينهما ما دامَ حيًّا يُرزق. كان على وشكِ أن يكنّ لها بعض المشاعر، كان كلُّ

شيءٍ على وشك... أيدخل ما فعلهُ في خانة الخيانة؟ إذا عَلِمت الفتاة بهذه الأخرى، ألن تتبدد شكوكها حول فتاة السيناريو لتنفجر غضبًا بسبب الأخرى؟

قالها ثانيةً: "لم أخنكِ أبدًا".

غضبَ منها في بعض الأوقات، لكنَّهُ لم يسقطها من عرش قلبه قط. عبر أدوات الحرب أو الحب، كانت الوحيدة التي يتواصل معها في قلبه. كانت الفتاة قد تحوّلت إلى الصوت الثاني الذي يتردد صداه في داخله. كان هذا الصوت هو ملجؤه اليتيم حين كان الوسواس والقهر ينخران فيه وهو يشتبه بوجود علاقة تربط الفتاة بزميلها المعماري الذي كانت على صداقة وثيقة معه في الشركة التي كانا يعملان فيها؛ كان يبوح بأنينه لهذا الصوت حينًا ويتشاجر معه حينًا آخر. خلال تلك الأوقات التي كان انعدام الثقة والغيرة فيهما قد أغشيا بصره، أيقنَ أن الحبَّ والألم يثوران من فوّهة بركانٍ واحد.

الآن، وهو يتذكَّرُ تلك الحلقة من حياته، يمكنه أن يشعر بلسعات وآلام الشك والكره والحسد.

"وأنتِ" سألها بهدوء، "ألم تفعلي شيئًا؟".

فأجابت: "هيا. فلتقل ما في جعبتك".

16

أدركَ أنه لن يستطيع تجاوز هذه المسألة، وأن لا طاقة له للتعمّق أكثر في مثل هذا الأمر ولا يملك قوة الإصغاء والمعرفة. كان يرتاب في أشياء كثيرة، لكنَّ صوته كان يتحوّل في داخله إلى كرة لهب تلفح روحه. في تلك الليلة التي لم ترد فيها على مكالمته الهاتفية... حين أخبرته أنَّ مشروعهم لم ينتهِ في الوقت المناسب واضطروا إلى العمل في الشركة خلال ساعات المساء، فيما كانت الحقيقة هي أنها خرجت مع صديقها المعماري لمشاهدة مباراة بشيكتاش... وماذا عن الأسبوعين اللذين انفصلا فيهما عن بعضهما البعض؟ تذكّرَ الكثير من التفاصيل الصغيرة من الماضي، وكان قلبه يتحطّم وهو يتذكّرُ تسويغاتها وتوضيحاتها التي لم تكن تنجح في رتق ذلك الفتق الواسع. ما الذي كان يجري؟ ما الذي فعلَتهُ؟ أكانت تخفي عنه شيئًا؟ أكانت تخرج مع شخصٍ آخر؟ من غير الممكن أنها استمرّت دومًا في حبّه والتطلّع إليه. حتى هو نفسه كان يتبرّم من نفسه أحيانًا ويعجزُ عن التحمّل، كانت هناك أوقاتٌ تخبو فيها مشاعره تجاهها ويتوق إلى أشياء أخرى. إذن؟ أكان مستعدًا للإصغاء إلى كلّ ما كان يخشاه؟ ما الذي كان يحقُّ له فعله لو...؟ لكن ماذا لو كان الأمر برمّته على خلاف ما كان يظنُّهُ ويفكّرُ به؟

أخيراً قالت الفتاة: "دعكَ من ذلك". بَدت هادئة ومرتاحة. شعر بالغضب الشديد: "كلّ شيءٍ مضى الآن".

كانت زوجة الفأر وفقًا للتقويم الصيني. كانت تعرف كيف تخفي مشاعرها. كانت تظهر الهدوء والنار تشتعل داخلها، وكان هذا مصدر

نجاحها. كان ينبغي ألا يشكّ بها البتة. كان ذلك شيئًا سيئًا. كان شكٌّ صغيرٌ سيقلب كلَّ شيءٍ رأسًا على عقب وسينهي العلاقة ويقود الشاب إلى تفسير كلَّ شيء بشكلٍ سلبي وسيء. كان الرجال من مواليد برجه الفلكي أوفياء في علاقاتهم العاطفية ومعاملاتهم ولا ينقلبون على عهودهم. كانوا مخلصين وصادقين ومساندين جدًا لأحبائهم. برجه الفلكي؟ كان برج الكلب. من حسنِ حظِّهِ أنه كان يحبُّ هذا الحيوان. لأنه -كمعظم الكرد- تمَّ تسجيل يوم وشهر ميلاده بشكلٍ تخميني في الهويّة الشخصيّة، فقد أشارت له الفتاة إلى التقويم الصيني وأوضحت له صفاته وخصاله بحسب برجه الصيني. لكن، لكي تنجح علاقة شخص من برج الفأر مع آخر من برج الكلب، على الشخصين أن يكونا غيورين ومضحّيين ومتسامحين. لماذا تركَ قلبه يخفق بقوة مُذعنًا للشكوك؟ الثقة، الثقة! اطرد الشبهات الشريرة! الحقيقة جليّة، عليه ألا يظلمها ونفسَه. الإخلاص إلى الأبد. تعجَّبَ من الدنيا ومنطق سير الأمور؛ فحين شعرَ بطوقٍ حديدي يكتم أنفاسه ورأى شياطين الشكِّ والريبة وهي توسوس في أذنه، كان طوق النجاة الوحيد الذي التجأ إليه هو هذه الأبراج الفلكية التي كان قد سَخِرَ من الفتاة وتهكَّم عليها وهي تتحدّث لهُ عنها. أدركَ أنَّ هناك لحظات أو مواقف أو حوادث تكون فيها المرأة دومًا محقّة.

نظرَ إليها خِلسةً بنظراتٍ جانبية. فجأة أضاءت عيناها كنجمتين مشعّتين؛ تلألأتا في ضوءٍ زجاجي. كانت تحدّق إلى المشهد خلفه. تبسَّمَ ثَغرها بحيوية عن شفتين شاحبتين جافتين.

قالت له: "انظر!".

استدار. كان هناك قطة بلقاء تسيرُ إلى الداخل. شقَّت طريقها عبر أقدام النُدُل ودَلَفت بخطوات متثاقلة عبر الطاولات لتستقرَّ عند الطاولة "المحجوزة" بجوار النافذة. رفعت رأسها الأبلق وانتصبت أذناها. انثنَت المرأة الجالسة على الطاولة، مدّت يدها نحو القطة وقالت شيئًا للرجل الجالس أمامها. فجأةً قفزت القطة فوق حُجرها وانكمشت على نفسها بين يديها.

"ما أجملها، أليس كذلك؟" قالت الفتاة بتنهّد. ارتفع صدرها وانخفض وهي تتنفّس بعمق. نظرَ إليها في لحظةٍ من الصمت والسكينة. بدا أن موجة نعاس تحاول جرفها. تدلّى جفناها تحت ثِقَل النعاس وكادا يطبقان بعضهما على بعض. "أتمنّى لو كان لدي قطة أيضًا". تسرَّبت هذه الجملة من بين شفتيها.

متناسيةً نفسها، ودون أن تلتفت إليه أو تلحظَ وجوده، كانت قد غاصت في ذلك المشهد. بدَت بريئةً بكتفيها الواهِنتين. ظلَّ صدى أمنيتها ثقيلًا كالرصاص معلَّقًا في الهواء المحيط بهما. أمسكَ الشوكة واقتطع من الجبنة قطعة، فقطعة أخرى، ومن ثمَّ فتَّتَ كلَّ شرائح الجبنة المتبقية في الصحن وهرسها.

استندت بذراعها على الكرسي والتفتت إليه: "أتقول إنني لن أملك قطة أبدًا؟".

قالت وهي تشبك يديها.

شعرَ بقوّةٍ عظيمةٍ تجري في عروقه. نظرَ بغبطةٍ إلى القطة المسترخية في حضن المرأة. كانت تنظر إليه وهي تلوي رأسها الذي تدلّك المرأة

فروته. ألقى الشوكة في الطبقِ بحماسٍ غير مرتقب وقال لها:

"كلّ ما تتمنينه سيكون ممكنًا. كما كان الحال دومًا...".

تحيّرت للحظة ولم تدرك مقصده، لكن سرعان ما انفرجت أسارير وجهها مع متابعة الشاب لحديثه، إذ أدركت -مثله- أنّه قد يكون دخول هذه القطة -التي كانت الشيء الوحيد الجديد والمختلف في هذه الحانة- إلى المشهد يشيرُ إلى تغيُّرٍ في حالهما.

"ربّما تمّ إبطال ذلك السحر"، قالها الشاب بحماس وأحنى رأسه نحو الأرض ليبحث عن مكانٍ يمرُّ فيه ذلك الخط اللعين. كان يؤمن بشكلٍ منقطع النظير أنّ يدًا ما قد محت ذلك الخط وأزالته. للحظةٍ ظلّا صامتين جامدين على كرسييهما بانتظار انعكاس حالهما وعودتهما إلى حالهما السابق.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى سئمت الانتظار العقيم وأرادت التوجُّه إلى الحمّام لتنظر إلى نفسها في المرأة.

"ربّما لا نشعر أننا نزداد شبابًا".

ما إن قالت ذلك حتى أمسك بيدها مباشرة وقال: "انتظري قليلًا، إن لم يحدث شيء فسننهض".

انتظرا طويلًا لكن لم يطرأ أيُّ تغيير.

"لا يمكن أن يسير الأمر على هذا المنوال، لن يتغيّر شيءٌ إن لم نغادر هذه الطاولة... حتى لو نظرنا من زاوية المنطق سنرى أنّ كلّ شيءٍ ههنا قد تجمّد. لا شيء يتغيّر هنا، لذا علينا أن ننهض".

"بالنسبة لشخصٍ من مواليد برج الفأر تبدين أكثر جرأة وشجاعة"، قالها ممازحًا.

"هل ترى فرصةً أو خيارًا آخر في الأفق؟".

"لكن ماذا لو استمر ذلك الشيء و..." لم تسعفه الكلمات لصياغة أفكاره في جملةٍ معبّرة.

"دعنا نحاول".

نظرت إلى الخارج، أغلقت عينيها ثمّ فتحتهما على وسعهما وحدّقت في القطة: "وقد تسير الأمور للأفضل؛ كما كانت".

"إذن سأطلب الحساب".

هزّت برأسها: "أستتمكن من فعلها؟".

"إنه الجزء الأسهل". وكمن يمسك قلمًا مخفيًّا بين أصابعه؛ رفع يده اليمنى ليكتب في الفراغ كلماتٍ على دفترٍ خياليّ. وما إن وقعت عينا النادل الواقف قرب الباب عليه حتى سارعَ في التقدُّمِ نحو طاولتهما.

"سيتغيّر العالم كلُّهُ ولن تتغيّر إشارة طلب الحساب من النادل"، قالت وتبسّمت بهدوءٍ كمن يسعى جاهدًا لشدِّ عضلات الوجه تحت قناعه الجلدي.

"فلنرَ إن كانت أموالنا ما تزال عملة متداولة وقابلة للاستخدام!".

جاءهما النادل بالحساب، وضعه على حافة الطاولة وانكفأ إلى الخلف.

تناولت ورقة الحساب وفتحتها: "١٨٣ ليرة تركيّة". مدّت يدها إلى

الحقيبة وأخرجت محفظتها. كان تحوي ٢٥٦ ليرة تركيّة.

"ما زالت كما هي"، قالت وهي تخرج قطعتين من فئة المئة ليرة تركية الزرقاء من محفظتها لتضعهما في دفتر الحساب.

"ها قد انتهى هذا أيضًا".

تنهدت وهي تضع محفظتها على حِجرها. نظرت إليه في ترددٍ وحيرة.

سألها بهدوء: "أأنتِ مستعدّة؟".

ارتخى جفناها قليلًا، ودخلت في صراعٍ داخليٍّ مع نفسها. لِماذا كانت قلقلة للغاية، وتشعرُ أن قدميها لا تقويان على حملها؟ غالبت حزنها. التفتت مرةً أخرى نحو القطة وتنفّست بعمق.

"هل ستبقى على حبِّكَ لي إن بقينا على هذا الشكل ولم نعد كما كنّا؟".

غمَّ الحزن عينيه وعضَّ شفّته السفلى وهي يحبس دموعه.

"لن يكون حبّي لكِ أقلَّ من ذي قبل".

نهضت، وحذا حذوها. ارتدى كلٌّ منهما سترته.

"ألن تأخذ نصَّ السيناريو الخاص بِك؟" قالت وهي تشير بعينيها إلى ملّف الأوراق المُلقى على الطاولة.

نظرَ إلى الملف والتزم الصمتَ للحظة. رفع يديه الخاويتين في الهواء وهزَّ كتفيه. كمن تخلَّصَ من حِملٍ ثقيل وانتقلَ إلى عالمٍ آخر، تقدَّمَ نحوها بخطواتٍ خفيفة ووقف بجانبها رافعاً ذراعه.

"تعالي، أمسكي بذراعي... وليبقَ النصُّ هناك على الطاولة".

وما إن عزما على الخروج حتى أوقفها ونظرَ إليها:

"لكن لو عادت عقارب الساعة إلى الوراء وعاد كلُّ شيء إلى سابق عهده"، قال. "سوف..." .

"سترى..." أجابته.

17

لكن ماذا لو لم تعد شابةً كما كانت ولم تبقَ على شيخوختها هذه؟ ماذا لو استمر ذلك الشيء الذي يدور حول الطاولة بالتأثير فيهم ودفعهم أكثر فأكثر نحو دوامة الشيخوخة؟

كأعرجين معاقين خرجا للتو من فراشهما؛ تقدّما بخطواتٍ يلفّها الحذر والخوف والشك. وكأن موجةً ما قد اصطدمت بالطاولة "المحجوزة" المجاورة لهما فغمرتها بألوانٍ وأشكالٍ مدهشة. شعرا بالدوّار والاضطراب ما إن مرّا بجانبها.

"كيف تشعرين؟" سألها.

فأجابته: "أنا بخير، بخير".

كان رأسها قد انحنى أكثر. مشيا في مسارٍ مستقيم كان يخترق صفين من الطاولات حتى الباب. أمِلَ أن يكون ذلك الخط الملعون على مكانٍ ما من الأرضيّة التي كانا يدوسانها فيما كان قلبه يخفق بشدة وهما على شفا الخروج من تلك الدائرة الملعونة، أو حتى فيها السقوط فيها رأسًا على عقب. تذكّر كلماتها حين كانت تقول له "شهيق، زفيرا!" وهو يحاول خلق طاقةٍ إيجابيةٍ -على حدّ وصفها- حتى تتحقق رغبتهما. إلى حدٍّ ما اعتقدَ أنّ بعض الأمور تتغيّرُ وتعود إلى سابق عهدها؛ لكن ما إن بلغَا الباب حتى لاحظَ أنّ الفتاة تواجه صعوبةً في تخطّي العتبة والنزول إلى الأرضيّة المنخفضة أمام الباب. أمسك ذراع الفتاة وساعدها في الخطو إلى الأمام وتجاوز العتبة لتهبّ عليهما ريحٌ باردة.

Telegram:@mbooks90

"كنتُ أعرف"، قالت الفتاة بهدوء وهي تسعل. "كنتُ أعرف".

توقفا لبرهةً أمام باب الحانة. وضعت الفتاة رأسها على كتفه وهي تلهث.

تمتمَ في سرِّه بهدوء: "كم الساعة الآن؟" رفع رأسه وحدَّقَ في السماء: كانت صافيةً خافتةً مقفرةً هوت نجومُها.

رفعت رأسها من فوق كتفه وحدّقت في داخل الحانة. ثمَّ نكزَته وضربَتهُ بمرفقها كي تلفتَ نظره إلى الطاولة المجاورة لوجهة الحانة الزجاجية. التفت إليها الشاب؛ كانت الطاولة "المحجوزة". كان الشاب والفتاة جالسين هناك، في تلك الهيئة التي كانا عليها حين دخلا الحانة لأوّل مرة. ريعان الشباب! خطى خطوة تجاههما فأمسكت الفتاة بذراعه: "تعال!".

أخذ بيدها وسارا ببطء في ذلك الزقاق الضيّق. كانا هناك، أما هما فهنا. كالزيت والماء تمامًا؛ ما كانا سيختلطان أبدًا؛ ما كان شيء سيوحّدهما. مهما فعلا، لن يتمكّنا أبدًا من العودة إلى ما كانا عليه.

"أتدرين؟" قال الشاب، "حتى تلك الأغنية لم أعد أسمعها. أشعر أن أذنيّ خاليتان تمامًا من كلّ الأصوات".

شعرَ برأسه يهتزُّ ويرتج، وكأن مطرقة قد دُقَّت في جمجمته. فطنت الفتاة لحاله فتوقفت على الفور وأمسكته. غُشِي بصرُه وشعرَ بدوَارٍ شديد. نازعَ وجاهدَ حتى استقامَ ثانيةً. شعرَ بالخجل. كان كطفل؛ شعرَ أنّه طفل. ينهضُ من الأرض ويمدُّ يده نحو مقبض المهد الخشبي، لكنّه لم يكن ينجح في التقاطه، إذ كان ينزلق من قبضته ويهتز. بخار

الماء الساخن ولمسة الرغوة ورائحة الصابون. كانت والدته تجلس أمام الحوض القريب من الباب وتغسل ثيابه المبللة بالبول.

انسلَّ من ذراعها. رفع رأسه وجاهد وهو يتنفَّس بعمق ويسحب الهواء إلى رئتيه. حين رأت أنه منهك وأنّه يكاد يخرُّ كنَجمٍ آفِلٍ؛ نسيت مشقّتها ودبَّت فيها الروح.

"أأنت بخير؟" سألته بسرعة.

"نعم، نعم". أوقفها بيده وطمأنها. وأخيرًا، كطفلٍ تمكَّنَ في نهاية المطاف من الوقوف على قدميه، قاوَمَ حتى استقام ووقف أمامها.

"أتدرين؟" قال. "لطالما حلمت بشيء". أحسَّ بدوخةً أخرى. هذا الرأس اللعين! لطالما شَعَرَ أنّه كان دومًا أثقلَ من جسده كلِّه. ترنَّحَ ثمَّ استعاد توازنه لكن دون أن يطولَ مقبض المهد الخشبي.

"أيّ شيء؟" كانت الفتاة تنظرُ إليه بعجزٍ وقد فتحت ذراعيها.

"أن نبقى معًا لا يفرقنا شيءٌ إلا الموت".

"يا إلهي!" قالت وارتمت في حضنه. انعقد لسانها. "لقد أصبحتَ مثل الطفل تمامًا. لكن لا يهم. أنا أيضًا لا تفارقني أطياف طفولتي الآن. أعتقد أنني لم أكن أدركُ أبدًا أنني عشتُ أشياء كثيرة في طفولتي. ليس لديك فكرةٌ عن كمِّ الأشياء التي أتذكرها من الطفولة". كان حلقها قد جف وفاقم السعال حالها؛ تحدَّب ظهرها بشكلٍ تام.

"يا له من أمرٍ صعب!" قالها الشاب وهو يساعدها على النهوض بيديه المرتعشتين ويدلك ظهرها. "حين يكون كلُّ شيءٍ في متناول يد المرء،

يكون عقله كفناء المنزل، ومع ذلك يشعرُ أنَّهُ وحيد".

كانا بالكاد يسمعان أصوات الناس والموسيقى الصادرة من المقاهي والحانات المجاورة. كانت جلبة الناس المنتشرة في الشوارع والأزقة وضجيج السيارات المارة يوحي أنَّ الوقت كان منتصف النهار، لكن الواقع كان أن ليلةً معتمةً ثقيلة كانت طاغية على عيونهما التي كانت بالكاد ترى بضع خطوات إلى الأمام. ما إن وصلا إلى نهاية الزقاق بخطواتٍ ثقيلةٍ خائرة حتى تحوَّلَ كلامهما إلى غمغمةٍ كانت بالكاد تُسمَع ولا يفهمها أحدٌ غيرهما. في آخر الزقاق، بجانب عمود المصباح الكهربائي، التفت إلى الجهة التي سمع منها صوت بوق سيارة الأجرة ورفع يده مؤشرًا للسائق. نزل من الرصيف بصعوبة وفتح لها باب السيارة الخلفي.

بقيت الفتاة ثابتةً في مكانها بجانب عمود المصباح الكهربائي. نظرت إليه بصمت وكأنها لم تفهم ما كان ينبغي عليها فعله. رفع الشاب يده الأخرى ولوّحَ لها.

"تعالي!".

لم تتحرَّك من مكانها؛ وكأنَّ عنادًا يعود عمره إلى آلاف السنوات قد حوَّلها إلى صخرةٍ صمّاء. لم تكن ترى وتسمع شيئًا. ناداها الشاب عدّة مراتٍ أخرى، ثمَّ اندفع نحوها ببطء ومدَّ يده إليها قائلاً: "تعالي!" أمسكت بذراعه بهذوءٍ وحَذَر وسارا نحو باب السيارة.

استغرقَ الأمرُ وقتًا طويلًا وصعبًا حتى وصلت إلى الباب الذي كان الشاب قد فتحه لها.

"أتتذكرُ عنوان المنزل؟" سألتهُ وهي تلهث من التعب بعد جلوسها في

المقعد الخلفي. "إلى أين سنمضي؟".

"لا داعي للسؤال". قال وهو يتحرّك ببطءٍ ليجلسَ بجانبها ويغلق الباب. "بعد أن لم يبقَ سوى مكانٍ واحدٍ في هذا العالم نقصده".

---

(1) في مزاج للحب.

(2) يا ذات العينين السوداوين، يا عشقي، لم يكتفِ قلبي من حبّكِ.

(3) أغنية تركية شهيرة للفنانة التركية مُزيّن سَنار: "من فضلكِ، أحبيّني يا جميلتي!"

(4) فنانة ومغنية تركية كلاسيكية.

(5) لقد غدوت مجنونكِ، محوتني.

(6) نوع من الأوعية النحاسية القديمة في تركيا، والتي توضع فيها مكعبات ثلجية وكأس العرق لتبريده.

(7) كنتُ شغوفًا حتى همدت، وحاولت حتى يئست.

(8) أسكُدار (Üsküdar): إحدى نواحي مدينة إسطنبول.

(9) باغلار باشي (Bağlarbaşı): إحدى مناطق أسكُدار (Üsküdar) بمدينة إسطنبول.

(10) تتضمن اللغة الكردية تعابير تستعمل كلمة القلب "دِل/dil" في الاشتهاء والاستلذاذ بالطعام، كأن يُقال "dilê min diçe vê xwarinê"، أي أشتهي هذا

(11) كاباتاش (Kabataş): منطقة تقع ضمن حدود "بَي أوغلو/Beyoğlu" في إسطنبول.

(12) ليتك اتخذتني حبيبة، وضممتني إلى صدرك.

(13) بيكا/لبغا (Biga): أكبر مدن ولاية جناق قلعة (Çanakkale) في منطقة مرمرة غربي تركيا.

(14) كوزغونجوك (Kuzguncuk): حيّ في منطقة "أُسكودار/Üsküdar" في الجانب الأناضولي من إسطنبول.

(15) بشيكتاش (Beşiktaş): إحدى مناطق الجزء الأوربي من مدينة إسطنبول. تطلُّ على البوسفور.

(16) أحد أنواع الديكة التي يتمُّ تربيتها غالبًا لإشراكها في حلبات صراع الديكة.

(17) تعني حرفيًا "على عَينِي"، وتُستخدم كتعبيرٍ كرديٍّ لإبداء القبول والإكرام والاحترام.

Telegram:@mbooks90